

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

www.hiramagazine.com

العدد: ٣١ / السنة السابعة / (يوليو - أغسطس) ٢٠١٢
مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل شهرين من إسطنبول

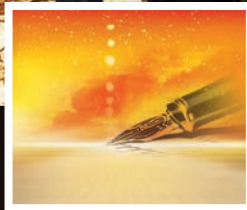
الدنيا والإنسان

في طريق عصية على السير تمضي..
تنوء بك الأثقال..
تلهث وراء طول أمل قاتل..
ويحك من ساذج مهوس بالأحلام..
هائم بتسويل الشيطان...

* * *



السراج النبوي
ينير درب البشرية الحائرة



سلطة الكلمة وقوتها



المجتمع المثالي

الإنسان المثالي



العدد: ٣١

السنة السابعة

(يوليو - أغسطس) ٢٠١٢

من خلال رؤية كونية توحيدية تشد الإنسان المثالي، بطل البصيرة وفارس الإدراك الذي تصدق عليه حقيقة أنه خلق في "أحسن تقويم". من خلال هذه الرؤية وذلكم المنظور، تعالج مجلة حراء في عددها الجديد، "الإنسان" من شتى جوانبه وفي أبرز أبعاده؛ المادية، والروحية، والاجتماعية، والبيانية، والعمرانية، والإيمانية، والحضارية وغيرها... ولذا جاء المقال الرئيس مرصعاً بمعاني "الإنسان المثالي" أساساً، و"المجتمع المثالي" تبعاً؛ هذا المجتمع، وذلك الإنسان، المؤسس على حقيقة "جمال الإسلام الذاتي وجاذبيته الأصيلية" وعلى "نفس القرآن الذهبي الذي يبعث الحياة في النفوس". ومن خلال سؤال مثير للفضول: "لماذا لا تهضم المعدة نفسها؟! شرح "الشهاوي" إحدى بدائع صنع الله في الإنسان، كذلك فعل "الخراط" في تحليله لـ"أسرار الجلد البشري". وعن الإنسان في سلم الكون والكائنات، ناقش عبد الإله بن مصباح قضية بالغة الأهمية، وهي أن "الإنسان عمَد الكون" وعمدته... أما عن علاقة الإنسان بما يحيطه من مخلوقات مسخرة له، فنقرأ لإبراهيم أبي عيانة مقالاً بعنوان "الإنسان والنبات". وللإنسان كلام وكلمات، وبيان وبيّنات هي سر من أسرار خلقه وخلقته، عنها قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (الرحمن: ١-٤)، وفي هذا النسق كتب "محمد جكيب" عن "سلطة الكلمة وقوتها". وما دام الوقف، والعمران، ومظاهر الحضارة الأخرى أوجهاً ناصعة من كرامة الإنسان، فقد كتب "نعمان ترك أوغلو" عن "الوقف العثماني.. حضارة واقتصاد"، والعصراني عن "الوقف في التكافل الاجتماعي"، كما أبرز "بركات" مسار البحث عن هوية العمارة الإسلامية.

ويبرز مقال الشيخ علي جمعة في تناوله لـ"المنهاج النبوي والقضايا الاجتماعية الكبرى"، ولقد أجمل فيه أسس هذا المنهج في نقاط ستة هي: الاهتمام بالعلم، والعمل، والتوازن، والعدل، ومراعاة الأعراف، والتدرج في التشريع.

ولقد كان لحراء حضور حيوي في ملتقيات عديدة كان من بينها المؤتمر العالمي بعنوان "السراج النبوي، ينير درب البشرية الحائرة"، بالاشتراك مع مجلة "بني أوميد" بمدينة غازي عنتب شرق تركيا؛ ولقد عرف هذا الحدث مشاركة أزيد من ستين دولة، فكان بحقّ منتدىً جامعاً، وحدثاً لامعاً... وكذلك المتلقى الدولي عن "النور الخالد" في جاكارتا، بالتنسيق مع "كرسي الأستاذ فتح الله كولن" في الجامعة الإسلامية الوطنية؛ وقد عقد بمناسبة ترجمة كتاب "النور الخالد، محمد ﷺ مفخرة الإنسانية" إلى اللغة الأندونيسية، فكان حدثاً بارزاً، ويوماً مشهوداً.

ولم يغيب الشعور عن هذا العدد، ويبقى الرجاء قميناً أن يلتحم الشعور الصادق بالفهم الحاذق، ليثمر عملاً صالحاً، وحضارة أصيلة نافعة... ويومها فقط يمكننا أن نودّع "إنسان الجسد" القصير النظر، ونصافح "إنسان الغاية" البعيد الغور، المطمئن القلب على الدوام... الذي نذر نفسه للإنسانية يخدمها بمعرفته وعرفانه... هذا الإنسان الذي ينهض بشجاعة خارقة، وعزيمة صادقة، لإزالة الظلم من كل أنحاء الأرض.



المحتويات

| | |
|----|---|
| ٢ | المجتمع المثالي / فتح الله كولن (المقال الرئيس) |
| ٥ | لماذا لا تهضم المعدة نفسها؟ / صلاح عبد الستار الشهاوي (علوم) |
| ٧ | أهزم نفسك / حراء (ألوان وظلال) |
| ٨ | الإنسان عمدة الكون / د. عبد الإله بن مصباح (قضايا فكرية) |
| ١٣ | الوقف العثماني.. حضارة واقتصاد / نعمان ترك أوغلو (تاريخ وحضارة) |
| ١٦ | المنهاج النبوي والقضايا الاجتماعية الكبرى / أ.د. علي جمعة (دراسات إسلامية) |
| ٢١ | أسرار الجلد البشري / د. حذيفة أحمد الخراط (علوم) |
| ٢٤ | ماء الحياة / حراء (ألوان وظلال) |
| ٢٥ | بحثًا عن "العمارة الهوية" / أ.د. بركات محمد مراد (ثقافة وفن) |
| ٢٩ | الاستيعابية الفكرية للكينونة البشرية في رسائل النور / أديب إبراهيم الدباغ (قضايا فكرية) |
| ٣٢ | ولكن.. كلنا في الهم شوق / د. محمد باباعمي (أنشطة ثقافية) |
| ٣٧ | الإنسان والنبات / د. إبراهيم عبد الباقي أبو عيانة (علوم) |
| ٤١ | تجليات الصبح / مرام البار (أدب) |
| ٤٢ | سلطة الكلمة وقوتها - ١ / د. محمد جكيب (أدب) |
| ٤٦ | صلاة الروح / أ.د. عبد العزيز المقالح (شعر) |
| ٤٨ | أثر الوقف في التكافل الاجتماعي / محمد أحمد المعصراني (ثقافة وفن) |
| ٥٢ | من تضاريس الجلال / صالح الزهراني (شعر) |
| ٥٣ | حول مفهوم الحضارة / أ.د. حسن الأمراني (ثقافة وفن) |
| ٥٦ | مؤتمر السراج النبوي ينير درب البشرية الحائرة / صابر عبد الفتاح المشرفي (أنشطة ثقافية) |
| ٦٢ | السلطان سليم.. الخادم الأمين / نور الدين صواش (محطات علمية وحضارية) |



المجتمع المثالي



تَقْوِيمٌ ﴿التين: ٤﴾، وآياتٌ أخرى في المعنى نفسه.. هو المدرك يقيناً أن الباري ﷻ قد خلقه في أجمل الأشكال المادية، وسواه في أروع الصور المعنوية، فكان بديع الصنع، متفرد الهيئة، تصدق عليه حقيقة ﴿أَحْسَنَ تَقْوِيمٍ﴾ بكل ما يعنيه التعبير.. وهو كذلك العارف بكنه الآية الشريفة التي تقول: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ (الأحزاب: ٧٢)، الخبير بمضامينها العميقة الواسعة.. إنه يعلم أنه المرشح الوحيد بين جميع الكائنات-المرئية منها والمعروفة- للرجوع إلى

إن المجتمع المثالي هو الذي يتكون من أفراد مثاليين. أما تلك الأكوام الهائلة المتخبطة التي تتشكل أجزاءها وجزئياتها من المساوئ والآثام، فهي حشود فارغة عقيمة موصدة أبوابها أمام كافة ألوان الخير والفضيلة والجمال.

الإنسان المثالي، أو الإنسان الكامل-كما عبر عنه القدماء- هو المتحلي بصفات ملائكية.. هو بطل البصيرة وفارس الإدراك.. هو المنتبه إلى الحقيقة الكبرى التي عبرت عنها الآية الكريمة: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ

آفاق لا نهائية، وهو واعي وعيًا تامًا أنه مجهز بطاقات وقدرات مفتوحة إلى اللامحدود، ومستوعب سبل استثمار "المواهب الأولى" التي منحها إياه الفاطر جل وعلا.

أجل، إنه إنسان ذلكم الوعي وتلكم البصيرة.

ولهذا، فإنه بقدر تمكنه من استثمار مواهبه الأولى التي وهبها له الباري ﷻ مئة منه وفضلاً، وبقدر كدحه لإمضاء حياته تحت أنوار الوحي ولألاء الإلهامات، وجهده في توفية الإرادة حقها، وبقدر براعته في تنمية تلك

المواهب وتفتيقها مثل حبة أنبت سبع سنابل، ونجاحه في إطلاقها نحو الأبدى اللامتناهي.. بقدر تمكنه من ذلك كله يمكنه سلوك الصراط الهادي إلى ذروة "الإنسان الكامل".

الإنسان المثالي يموج عقله موج الدوامه بألف سؤال وسؤال، ويواصل التنقيب عن الحقيقة بنهم عجيب، ويغذ السير قداماً لكي يفك شفرة ألف لغز ولغز؛ فتراه متوقد الذهن متوثب البحث عن أجوبة للأسئلة الكونية الكبرى: "ما الحياة، وما الموت، وما حقيقة الكون، وما علاقته بالإنسان، وما معنى العبودية لله، وماذا تعني الطاعة له، وما الإثم، وما الثواب، وما حقيقة المَحَن التي تُلَمَّ بالإنسان، ولماذا تُلَمَّ به؟".. في الوقت ذاته تراه مشتعل الفؤاد.. قد شيد من بوارق الحكمة التي لا تكف عن الوميض في سماء وجدانه، ومن نسيمات الإلهام التي لا تنقطع عن تجلياتها في أرجاء روحه، صروحاً نورانية شامخة.. ثم سما حتى بلغ قمة تلك الصروح.. فأبصر كنه الأشياء، واكتشف ملكوتها، وأدرك ما طوي منها وراء ستار المنظور.. فاتجه إلى المصدر الحقيقي للروح، يغمره الحب وتهزه الهيبة نتيجة تقبله بين مد الحيرة وجزر الانبهار.. ثم ذاب في نشوة من السكينة لا توصف، ولذة من الطمأنينة تسمو على كل تعبير.

وإن روحاً قد وصلت تلك القمة السامقة ليستوي لديها الإحسان والحرمان، فلا تفرح بالألطف المتعاقبة ولا تزهو

الإنسان المثالي، متواصل الغوص والتقليب في أعماق الحوادث والأشياء بحثاً عن الحق والحقيقة.. قد فرغ كل وقته ووظف كل طاقته لتحقيق سعادة الأمة، مولياً عناية خاصة بالمواقع التي يراها أشد حيوية وأكثر جدوى للأجيال القادمة، موقفاً نفسه عليها قائلاً: "لتحي الأجيال القادمة".

بها، ولا تحزن بانقطاع العطايا ولا تياس منها.. فالعطاء والحرمان في نظرها سيان.. إذ بينما يغتر بعضهم بالعطاء فيطغى، أو يحرم منه فيتحسر يائساً ويشقى، تجد تلك الروح الواصلة قد عرفت كيف تستنبت الورود في قلب الفلاة، وتستخرج السكر من جوف القصب، وتحقق أرباحاً متنامية حتى في مواسم الكساد والخسران.

أجل، حتى لو أصابت الإنسان المثالي أشد المَحَن قسوة وفتكاً، وأحدثت به أكبر الدوامات رهبة وعتواً، فلسوف يرى نفسه سائراً في ممر طويل

من الامتحانات، ينتهي به إلى ألوان شتى من التوفيق المؤكد والفوز المبين، ولسوف يحس -في أسوأ خطوبه وعند أصعب لحظاته- بنسمات من الأُنس والسكينة القادمة من وراء الحُجُب تطوف في أرجاء روحه برقة ونعومة، فيركع بين يدي الله تعالى خاضعاً منكسراً وقد امتلأت نفسه بمشاعر الحمد والعرفان، وفاضت بأحاسيس الشكر والامتنان.

الإنسان المثالي، يمتلك ثقة لا حد لها، وطمأنينة لا غاية بعدها، لأنه يؤمن إيماناً لا يخالجه شك بعناية القدرة المطلقة، ويوقن بأن الله قادر على كل شيء، وأن حكمه نافذ في كل شيء. وإن ذلكم الإيمان الصافي الرقراق المتجذر في أعماق قلبه، وكذلك تصوّره ورؤيته وعقيدته التي أكسبت عالم روحه أبعاداً جديدة تتجاوز جميع مقاييس العقل.. كل ذلك يرقى به إلى قمة تسمو على كل إحساس، وتتفوق على كل شعور. فلو تمكّن في تلك اللحظة من أن يُنصت إلى ذاته بأذن تعي تلك الأعماق، فلسوف يسمع همسات (ألاً تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون) (فصلت: ٣٠)، أو (سلام عليكم اذخلوا الجنة بما كنتم تعملون) (النحل: ٣٢)، ولسوف يسبح في متعة أكرم بها من متعة، ويغوص في نشوة ما بعدها نشوة.

هذا، ولأن الإنسان المثالي يؤمن بالدار الآخرة من كل قلبه، فسوف يمضي سني عمره وينظم شؤون حياته وفق تلك

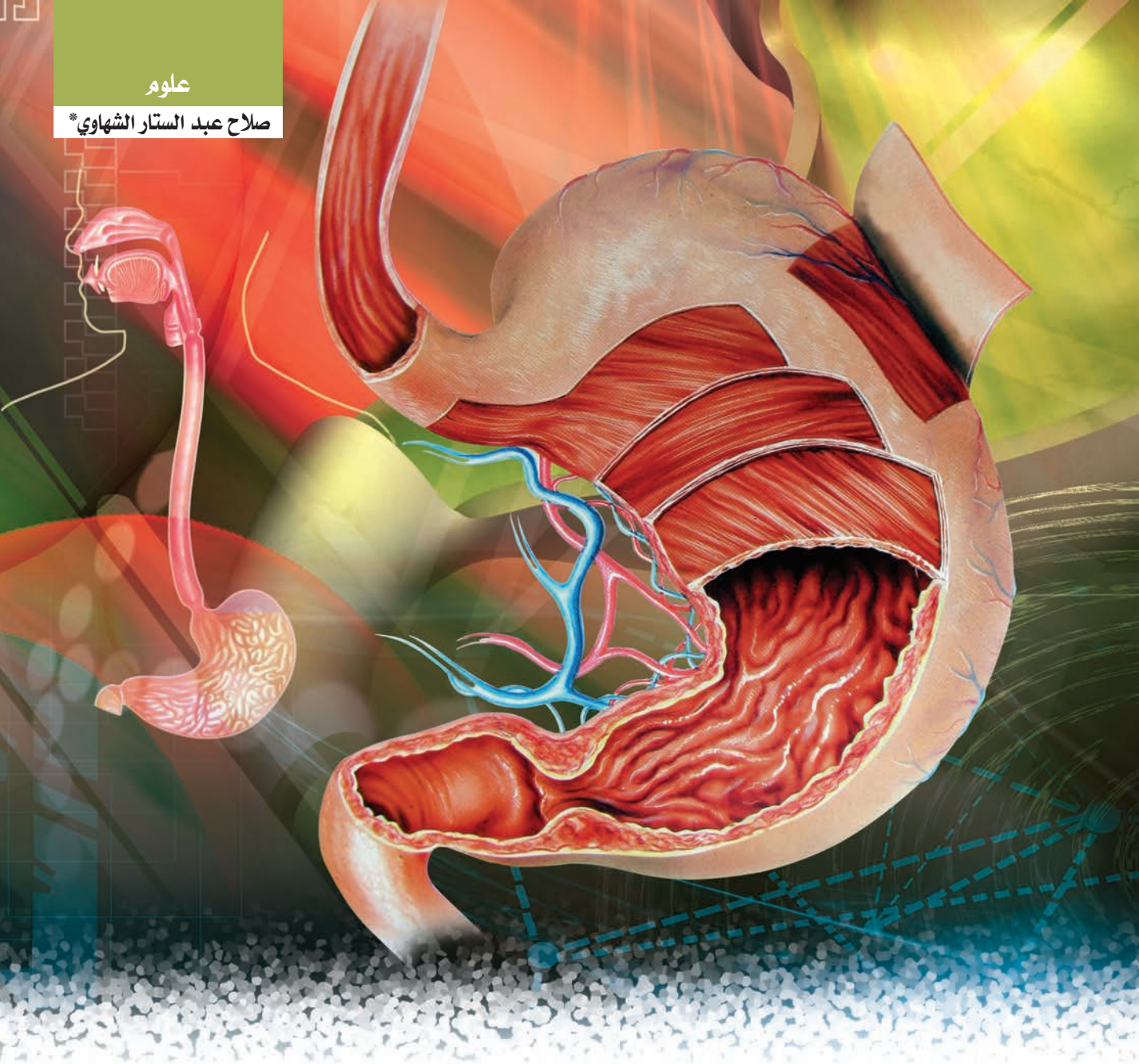
الدار.. وسيبذل قصارى جهده لاجتناب كل جُرم أو مظلمة أو فساد.. ويظل في جهاد مستمر مع نفسه دون كلل أو ملل، ومن ثم فلن يسقط في براثن العبثية ومناهة الإباحية أبدًا.. بل ستبقى عيناه متعلقتين بجمال السفوح الزاخرة بتجليات الخليل السرمدى والولي الأبدى.. ويظل عقله في نشوة غامرة وقد وعى معنى الأبدية والخلود.. ويغدو قلبه روضة من رياض الجنان، تبتسم فيها الألوان الزاهية، وترفرف فوقها الأرواح الطاهرة غادية رائحة.. إذ يدرك حق الإدراك أنه ما جاء إلى هذا العالم العجيب إلا مسافرًا سائحًا، يشاهد الجمال، ويتأمل الكمال، ويتجول في أرجائه المترامية مشدوهاً مبهورًا.

وبينما يقضي "إنسان الجسد" كل حياته خلف ملذاته الجسمانية، أسيرًا لرغباته النفسانية دون أن يبلغ ما ينشده من طمأنينة، فإن "إنسان الغاية" سعيد النفس مطمئن الفؤاد على الدوام.. فهو بطل الروح والمعنى.. الذي نذر نفسه للإنسانية يخدمها بمعرفته وعرفانه.. والذي نهض بشجاعة خارقة وعزيمة صادقة لإزالة الظلم من كل أنحاء الأرض.. فهو -إذا اقتضى الحال- لا يد له على من ضربه، ولا لسان له على من شتمه، بل يبسط جناح عفوه حتى على من لم يعرف له قدره أو يقدر إليه صنيعه.. وهو -إذا جدَّ الجدّ- الصَّوال في ميادين الرجال، الجوال في مواقع المقارعة والنزال ببسالة منقطعة النظير.. ولو أن السيوف نالت من أطرافه قطعًا وبتيرًا، والرماح دكت جسده طعنًا وفتكًا.. ولو أن الجراح أثنخته من قمة رأسه حتى أحمص قدميه، وصبغت ملابسه بصبغة العُلم الأحمر، وتكسرت رماحه في يديه، وباتت سيوفه لا تقطع.. أجل، حتى في تلك اللحظة، فإنه سوف يهزم جواده، مقتحمًا به الصفوف، طعانًا للصدر، حصًا للرووس ومزلزلًا لقلوب الظلمة بزئير كزئير الأسود المزمجرة.

إن بطل الروح هذا، يؤمن يقينًا أن كل شيء ما خلا الله زائل، لذلك لا ينحني أمام أحد، ولا يركع إزاء أي شيء، ولا يغزه أيُّ إغراء مادي؛ بل يقيم كل ما يملكه، ويسخر كل ما لديه لرفع كلمة الإسلام، مشحونًا بمشاعر رجال الآخرة وتصورات أبناء الخلود. فهو متواصل الغوص والتقليب في أعماق الحوادث والأشياء بحثًا عن الحق والحقيقة.. قد فرغ كل

وقته ووظف كل طاقته لتحقيق سعادة الأمة، موليًا عناية خاصة بالمواقع التي يراها أشدَّ حيوية وأكثر جدوى للأجيال القادمة، موقفًا نفسه عليها قائلاً: "لِتَحْيِ الأجيال القادمة".. ثم يمضي -وقد أدى واجبه- لا يلتفت إلى الوراء ولا يلوي على شيء.. إنه يسعى ليل نهار ابتغاء مرضاة الحق تعالى منقَّبًا عن الصدق الخالص. فلا الرغبة في الاستمتاع المادي تشنيه عن وجهته، ولا تألُّ الروح بالكرامات الخارقة تعكّر صفاء نظره.. فهو يؤمن أن العبودية لله أعظم قيمة في الوجود. وفي ضوء هذا الميزان يرى أبسط العباد أعظم منه مرتبة وأسمى منزلة، وبالتالي يُنزلهم منزلة التاج من الرؤوس. وإذا ما لفحه هؤلاء بنيران من الغلظة والخشونة والإنكار وعدم التقبل، فإنه يمتص لفتح تلك النيران ويحتويها في صدره إلى أن يخمد أوازها. وهكذا يقدم مثلاً أعلى في المنهج والسلوك، ويعلم هؤلاء الذين لا علم لهم بالأصول ولا الأسلوب أدب درء السيئة بالحسنة. أجل، في عالمه الدافئ الناعم الرقيق تردُّ الصواعق والبوارق على قلب نور، فتولد من جديد وتنمو في قلب النور لتضيء العيون والقلوب بوهج النور.. وفي عالمه المبتهج بالأنوار تتحول ألوان شتى من النيران النمرودية المتعاقبة إلى برد وسلام في كل حين، لتنفح النفوس الخشنة المتمردة رقةً وأنسًا. يبدو أننا -ولا سيما البعض منا- لم نفلح في السمو إلى هذا المرتقى من الاستواء والنضج بعد.. ولأننا كذلك، لا نحسن دفع السيئة بالحسنة، فنواجه العنف بالعنف، والحقّد بالحقّد، والخشونة بالخشونة نفسها؛ بل ونقع في خطأ كبير عندما نظن أهواننا أفكارًا، ونخلط بين عواطفنا الذاتية وكفاحنا الذي نكابده باسم الإسلام، ولذلك نتكبّد خسائر فادحة في أغلب الأحيان بعد أن كنّا سائرين في مواطن الكسب ومواسم الريح. الحقيقة أنه لولا جمال الإسلام الذاتي وجاذبيته الأصيلة، ولولا نفس القرآن الذهبي الذي يبعث الحياة في النفوس.. لتعدّر مع أدائنا الناقص الرديء، وتمثلنا الواهي المتداعي، أن تبلّغ هذه الأمانة المقدسة وتلك الدعوة النبيلة إلى ما بلغته اليوم. ■

(*) الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.



لماذا لا تهضم المعدة نفسها؟

مرة كل عشرين ثانية، وهو ما نسميه "التمعج". أما الطبقة الأخرى، فهي الغشاء المخاطي الذي يتجمع في ثنيات طويلة عندما تخلو المعدة، ولكنه ينبسط عندما تمتلئ وتكسو الغشاء طبقة من المخاط، لها أهمية كبيرة في حماية جدار المعدة، وتنتشر بالغشاء المخاطي المبطن لجدار المعدة (٣٥) مليون غدة معدية، وهي المعروفة بـ"الليزوسوم" (Lysosomes)، وهي عبارة عن تركيب خلوي (Organelle) يفرز

يتكون جسم أو جدار المعدة من طبقتين رئيسيتين: طبقة عضلية مكوّنة من ثلاث طبقات من الألياف العضلية (خارجية طويلة، ووسطى دائرية، وداخلية مائلة). ووظيفة عضلات المعدة؛ طحن الطعام وخلطه بعصارة المعدة حتى يصبح سائلاً غليظ القوام هو "الكيموس"، ثم دفعه نحو الأمعاء الدقيقة بفضل موجات من التقلص، تسري في المعدة من أعلاها إلى أدناها

ي

أنزيمات لتكسير وتفكيك المواد الغريبة في داخل الخلية، حيث يقوم بإفراز العصارة المعدية بواقع ثلاث لترات يوميًا. هذه العصارة المعدية تتكون من خميرة أو أنزيم "الببسين" (Pepsin)، وأنزيم الرينين، وحمض الهيدروكلوريك، بالإضافة إلى العامل الداخلي المنشأ اللازم لامتناس فيتامين (ب ١٢). يعمل أنزيم الببسين على هضم البروتينات -فقط- هضمًا جزئيًا على هيئة ببتونات، وبعد ذلك تعمل أنزيمات الأمعاء على إتمام الهضم. والببسين يفرز في المعدة على شكل غير فعال، حتى إذا وصل إلى تجويف المعدة، حوله حمض الهيدروكلوريك إلى الشكل الفعال، وذلك للحيلولة دون قيام هذا الأنزيم بهضم البروتينات في الخلايا التي تفرزه وهي اليليزوسوم.

وظيفة المعدة

وظيفة المعدة الأساسية هي هضم المواد الغذائية التي نتناولها وخاصة المواد البروتينية، أي تكسيرها إلى جزيئات صغيرة، حيث تقوم جدران المعدة القوية بالضغط على الطعام لأربع ساعات يتحول بعدها الطعام إلى شبه سائل.

ومعنى الهضم، أن يتم تكسير كل الأجزاء الكبيرة إلى أبسط صورها، إما ليتم امتصاصها مباشرة إلى الدم، أو أن يقام عليها عمليات أخرى ليتم هضمها إلى أبسط ما يمكن أن يمتص بالدم. فإن لم يتم ذلك التكسير بصورة جيدة، وجدنا المشكلات الصحية الكبيرة؛ كسوء التغذية والأنيميا، وعدم هضم البروتين والانتفاخات، وغيره من أمراض الجهاز الهضمي التي كثيرًا ما تؤرق الناس كلهم. وللمعدة أربع وظائف أخرى، هي التخزين، والخلط، والإفراز، والتخلص من البكتيريا؛ إذ تعتمر جدران المعدة الطعام وتطحنه، وتعجنه وتخلطه بالعصارة المعدية.

والمعدة دورها حيوي ليس فقط في هذه الصورة، وإنما أيضًا لأنها تعادل المواد التي تدخل إليها معادلة "أس هيدروجينية"، بمعنى أن تنظم المعدة الرقم الهيدروجيني بما يناسب الحامضية التي يكون عليها الدم. لأنه لو ابتلع الإنسان شيئًا حامضيًا أو قلويًا، كيف يسير إلى تيار الدم بهذه الصورة؟ فهو خطر على جميع الخلايا والأنسجة الأخرى. لذا فدور المعدة، معادلة هذه الحامضية إلى أن تصل لنفس درجة حامضية الدم، هذه المعادلة هي ما يطلق عليها "PH".

لماذا لا تهضم المعدة نفسها؟

المعدة من لحم... والمعدة تهضم اللحم... فلم لا تهضم المعدة نفسها؟!

المعدة لها غشاء مخاطي يقوم بوقاية بطانة المعدة من حمض الكلور وأنزيم "الببسين"، ولكن لا يوجد غشاء يحمي باقي عضيات الخلية من تأثير هذه الأنزيمات، لأن الأنزيمات الهاضمة موجودة فقط داخل هذه العضيات: اليليزوسوم وهي تقوم بابتلاع الأجسام الغريبة المراد هضمها إلى داخلها ثم تقوم بهضمها، وبذلك تبقى الأنزيمات معزولة عن باقي أجزاء الخلية؛ وذلك عامة أحد طرق موت الخلايا المريضة أو الخلايا التي انتهى عمرها عن طريق انفجار هذه العضيات، وتسرب الأنزيمات إلى باقي أجزاء الخلية وتحللها، ثم موت الخلية (Apoptosis).

ولماذا لا تقوم هذه الأنزيمات بهضم اليليزوسوم وباقي

التركيب الخلوية (Organelle) الموجودة داخل المعدة؟

إن الانحناءات في جدار المعدة الداخلي والتعرجات، موجودة في القناة الهضمية، ويختلف عمقها من مكان لآخر حسب الوظيفة للمكان التي توجد فيه. نراها في المعدة تكاد تكون معدومة، وهذا لأن الطعام هنا يُهضم، أي لا بد أن يكون الوعاء أملس تمامًا لجودة العملية واختلاط الطعام تمامًا بالعصارة المعدية ليتم هضمه جيدًا.

والمعدة فيها تعاريج بسيطة جدًا، وفيها معادلة للأحماض والقلويات (PH)، التي تدخل الجسم، معنى هذا أن المعدة بها آلية خطيرة جدًا لتحميها من الأحماض والقلويات؛ لتحمي جدارها أولاً، ولا تهضم نفسها من عصارتها الذاتية التي تفرزها، ومن الأحماض والقلويات التي ترد إليها من الخارج. كما أن المعدة بها غشاء سميك جدًا من المخاط (Mucus)، هذا المخاط يعمل كعازل بين ما هو داخل المعدة وخلايا المعدة.

هذا الغشاء متصل متساوي السُمك في الجدار الداخلي للمعدة، إلا من بعض المناطق التي تُخرج منها المعدة عصارتها المعدية، سنجد عندها أن الغشاء المخاطي خفيف، وعادة ما يكون مركز هذه القنوات للداخل في التجاويف البسيطة جدًا لسطح المعدة الداخلي.

أما هذا المخاط فتفرزه خلايا متخصصة اسمها "الخلايا

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

إَهْزَمْ نَفْسَكَ

اتَّقِدْ إِيمَانًا،

وَلَهَبًا اشْتَعَلَ،

وَدَعْ رُوحَكَ مَصْبَاحًا،

فِي كُلِّ الْأَمَاكِنِ تَضِيءُ!...

قَاوِمٌ نَفْسَكَ وَاهْزِمَهَا،

وَانْتَصِرْ عَلَيْهَا،

وَكُنْ كَمَا الْإِيمَانُ يَرِيدُ... * * *

المخاطية" (Goblet Cells) التي تفرز كمية كبيرة جدًا من المخاط يوميًا، وهي منتشرة بكثرة في الجدار الداخلي للمعدة لتجدد تلك الطبقة العازلة للمعدة.

يرجع ذلك إلى أن الله ﷻ قد بطن جدار المعدة من الداخل ببطانة عجيبة معجزة، تتجدد خلاياها بسرعة مذهلة تصل إلى نصف مليون خلية في الدقيقة، بحيث تتجدد في فترة تتراوح بين يوم إلى ثلاثة أيام. وهي بذلك تفوق السرعة التي تعمل بها العصارة المعدية بما تحتويه من حمض الهيدروكلوريك والأنزيمات الهاضمة الأخرى لإذابة تلك البطانة، كما أن هذه الخلايا المتجددة دائمًا، تعمل على تكوين حاجز سميك تفصل به غشاء المعدة وجدرانها الداخلية عن الحمض والأنزيمات الهاضمة، وهذا ما يطلق عليه "الحاجز الميكانيكي".

في الوقت الذي تندفق فيه العصارة المعدية إلى تجويف المعدة لتختلط بالطعام، فإن بطانة المعدة تقوم بإفراز المخاط وهو قلوي التأثير، إذ يلتصق هذا المخاط بغشاء المعدة وكأنه مرهم أو كريم، ويقوم بمعادلة الحمض ويمنع تأثيره. والمخاط بذلك يعمل كحاجز كيميائي يحمي غشاء المعدة وجدرانها من التآكل أو الهضم.

خلايا المعدة قلووية التأثير، وهي بذلك غير مناسبة لنشاط وعمل أنزيم الببسين، كما أن الغشاء الذي يغلف الخلايا المبطنة للمعدة له خاصية عجيبة، حيث لا يسمح هذا الغشاء بنفاذ أنزيم الببسين وكذلك حمض الهيدروكلوريك.

تحتوي خلايا بطانة المعدة على مضادات للأنزيمات الهاضمة، وتقوم هذه الخلايا بالالتصاق مع بعضها التصاقًا وثيقًا، بحيث لا تسمح بالنفاذ لأي مادة هاضمة من تجويف المعدة إلى جدران المعدة الداخلية.

إذن، كلما توغلنا في أسرار خلق الله وعابناه كلما شعرنا بمدى جهلنا وضآلة علمنا... وصدق الله حين قال: ﴿وَمَا أَوْتِيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: ٨٥)، ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون: ١٤). ■

(*) باحث في التراث العربي والإسلامي / مصر.

الإنسان عهد الكون

تتناغم ألحانها بين جمال التألق في الحُلل وكمال التناسق في العِلل، دالة لك على أن الذي تزينت له الأكوان وترنمت له الألحان، إنما هو الإنسان الموكل إليه خلافة الأرض. فالكون، هذا البناء الرائع ذو النسق الكامل حول الأرض، لا يمكن أن يُتصور بهذه الروعة في الجمال وهذا التناسق في الكمال، إلا لمعنى دقيق وقصد عميق غايته الإنسان الكامل الذي من أجله خُلق، إذ كان مستحضراً في صلب موضوعه منذ اللحظة الأولى لبنائه.

من المعلوم في كل بناء أن يسبق تشييد المبنى تحديداً المعنى. كذلك هو شأن الكون، قبل أن يكون ميناه كان الإنسان في لب معناه عين القصد من تصميم نُسقه، وسرّ المغزى من ترتيب نُظمه؛ بحيث سبق تشييد مبنى الكون تحديداً المعنى الذي من أجله أقيم وهو الإنسان، الذي على مقاسه فصل بنيانه وعلى طباعه صمم نظامه. فإذا وقفت متأملاً منظومة الكون بين أسطر ميناه وأبخر معناها، فستجدها تشدو لك بمعزوفة رائعة



فإذا استقرت مجمل المشاهدات الفلكية لعلماء الفضاء مستحضراً هذه المعاني، فستجدها تجلياً لك الكون "نسيجاً متجانساً" (Cosmic Web) في "توسع" (Expansion) غير محدود، يجري في جميع "الاتجاهات الكونية" (Isotropy) وكأن الأرض في وسطه. هذا التوسع الكوني الذي انطلق مع حادثة فق الرتق التي رفعت السماوات عن الأرض، المشار إليها في القرآن الكريم بقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ (الأنبياء: ٣٠)، والمعبر عنها

إن الإنسان عمَد السماوات والأرض، وإن العالم لا معنى له بدون وجود الإنسان، وإن الإنسان كان المقصود من خلق السماوات والأرض، فإذا انقضى أجله خرت السماوات على الأرض بزواله، وانتقلت العمارة إلى الآخرة من أجله.

الانكماش بفعل مباشر منه سبحانه، كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَيُؤَمِّسُكَ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (الحج: ٦٥). ولذلك فالله ﷻ لما وصف لنا ظاهرة التوسع، نسب المهمة إلى ذاته العلية وأنه يتولاها سبحانه بفعل مباشر صادر عن قوته الخفية. وأكد لنا سبحانه ذلك، من خلال صيغة التوكيد التي جاءت بها الآية ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ للدلالة على قوة في الفعل، تقابل فعلاً مضاداً تمثله تلك القوة الجاذبة التي تعمل في الاتجاه المعاكس على تجميع الأجرام في الكون، الذي من خلال خصائصه

في العلوم الفلكية بكلمة (Big Bang) أو "الانفجار العظيم"، هو سارٍ في الكون بسرعة تنافر بين المجرات، تزداد بنفس النسبة التي تزداد بها المسافة الفاصلة بينها كما تقر بذلك نظرية "هابل"^(١) وعليه بما أن سرعة هذا التوسع تبقى متصاعدة بتصاعد المسافات الفاصلة بين المجرات، دون أن تُمد بأية قوة محرّكة رغم وجود عامل التجاذب الحاصل بين المجرات، اللهم إلا تلك القوة الأولية الناتجة عن وقع الانفجار الذي تولد عنه فق الرتق، فذلك يعني أن هذا التوسع الساري في الكون هو قائم بقوة قادر، كما دلت عليه الآية في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات: ٤٧)، التي توحى بأن الله هو الذي يتولى مهمة التوسيع بفاعلية منه، يبثها سبحانه في الكون ليظل في انتشار مستمر. ولا ينبغي أن يفهم التوسع على أنه نتيجة عفوية لفارق الكثافة بين الأجرام ومادة الكون، تنجم عنه قوى نابذة تؤدي إلى تنافر الأجرام وتباعدها في الكون، كشأن بالونات هواء موضوعة داخل جسم مادي أكثر كثافة كالماء مثلاً؛ فهي لا بد أن تتصاعد إلى أعلى وتتنافر في اتجاهات مختلفة، فهذا لا يمكن أن يحصل في الكون، لأن عامل الجاذبية بين الأجرام يلعب من جهة أخرى دوراً مضاداً.

الفيزيائية يبدي نزوعاً شديداً إلى الانقباض.

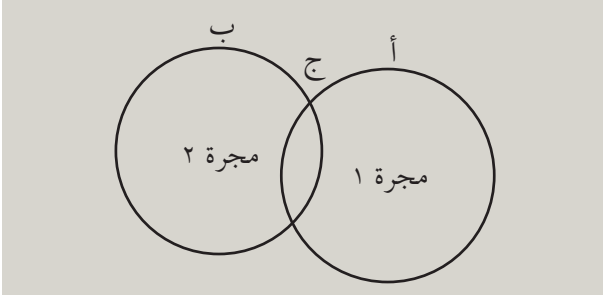
ولعل ذلك ما خلصت إليه نتائج أحدث أبحاث علماء الفضاء من مجموعتين مختلفتين للبحث العلمي؛ مجموعة "Supernova Cosmology Project"، ومجموعة "High-Z Supernova Team"^(٢). هاتان المجموعتان تبين لهما من خلال المشاهدات الفضائية وقائع مذهلة؛ اكتشف الباحثون من خلالها مجرات بعيدة تتباعد عن مجرتنا بسرعات تفوق بكثير ما ينبغي لها أن تكون عليه. مما يعني -كما فسروه- أن سرعة التوسع في الكون تتصاعد كما لو أن قوة غامضة سمّوها "الطاقة الظلماء" تعارض قوة الجاذبية بين الأجرام التي تعمل من جهتها على تجميع الكون وانكماشه. وهذا جعلهم يندهبون، واضطروهم إلى الإقرار بضرورة وجود قوة خارقة في عالم آخر يقابل هذا الذي نحن فيه، هي التي تمد عالمنا بالطاقة وتتولى تدبير نظمه كما جاء في تقاريرهم.

السَّيْحُ وَالْفَاعِلِيَّةُ الدَّائِيَّةُ

من جهة أخرى، إذا رجعنا إلى ما تنطوي عليه حقيقة هذا التوسع الكوني، من خلال وقوفنا على حركة الأجرام السماوية في نسق هذا التوسع المعبر عنها في كتاب الله بعملية السبح الواردة في قوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٣)، فسنجد أن ظاهرة التوسع الكوني -حتى تنضبط في نسق منسجم- كان لا بد لها أن تقترب بتناغم الفاعليات الذاتية المبذولة من مختلف الأجسام السماوية.

إذن، هناك قوة تتولى توسيع الكون في نسق التناغم بين مكوناته، ولولاها لأطبقت السماوات على الأرض ولانقبض الكل على الإنسان. وتلك هي قوة الله التي تحفظ الكون من

موضحاً في الشكل التالي:



هذا الشكل يُجلي لنا حقيقة هذا التجانس؛ بحيث إذا كنتَ في المجرة (١)، فإنك ستراها تتوسط الكونَ، وترى منها المستوى الذي يحمل نقطة "أ" متميزاً بخصائصه الموحدة. ثم إذا كنتَ في المجرة (٢)، فستراها أيضاً تتوسط الكونَ، وترى منها المستوى الذي يحمل نقطة "ب" متميزاً كذلك بخصائصه الموحدة. فإذا تداخلت نقطُ المجرتين (١) و(٢)، تتجانست الخصائص المميزة لكل واحدة منهما بمقتضى التوحد الحاصل في نقطة التقاطع "ج" وفقاً للمعادلة التالية:

$$أ = ج \text{ و } ج = ب \text{ و } ب = أ$$

فهذا الشكل إذن، يظهر لنا حقيقة التجانس الحاصل بين المجرات بمقتضى التداخل القائم بين نقطتها. فإذا كانت كل مجرة لها من الخصائص ما يميزها عن غيرها، فإن التداخل بين نقطتها سيلغي هذا التمايز في الخصائص ويحدث لها تجانساً يوحد فيما بينها. وهذا ما يضيف على الكون صفة التوحد التي تحمل في دلالاتها وقفاً قوياً لأثر الفاعلية الخفية التي لولاها ما ترتبت نظمه في هذا التماسك العجيب، وما تشكل بنيانه في هذا التجانس البديع.

السماء وحبك نسيجها

هذا التجانس الحاصل بين المجرات والذي يشكل بناء السماء، إذا أخذناه من بعد نظرية "كوبرنيك" التي نجد لها أصولاً في التصورات الفلكية لـ"ابن طفيل"، والتي تبين فلكياً أن الأرض تتوسط الكونَ، بحيث من أية جهة من الأرض نظرتَ إلى الكون رأيتَه محيطاً بك، فسنجده يعبر عن تماسك رائع لنسيج الكون حول محيط الأرض، كشأن خيوط العنكبوت المحبوكة حول دائرة مركزية. وهذا التشبيه لنسيج الكون بنسيج العنكبوت الذي أصبح اليوم متداولاً في التقارير العلمية لعلماء الفضاء، بما يشاهدونه من مرصدهم الفلكية. ليس بغريب إذن ما أخذناه من بعده الشكلي، فقد

ففي الاصطلاح اللغوي والاستعمال القرآني لكلمة

"سبح"، نجد أن هذه الكلمة تعني كما قال القرطبي رحمه الله^(٣) في تفسير قول الله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ (المزمل:٧): "الجري والدوران ومنه السابح في الماء لتقلبه بيديه ورجليه، وفرس سابح أي: شديد الجري". وهذا يفيد ضرورة وجود عامل تأثيري لقوة ذاتية في الجسم حتى تتم عملية السبح. فإذن، هي حركة ناتجة عن طاقة محرّكة من داخل الجسم، كما يحصل ذلك عند الطيور السابحة في جو السماء، أو الحيتان السابحة في عرض البحار، التي إذا رأيتها انسجمت في لوحات سبح جماعي فلحصول تناغم تواصلية بينها. إلا أن دور الكثافة يبقى مع ذلك قائماً بين الجسم السابح والمادة التي يسبح فيها، بحيث لا يتسنى لأي جسم مادي أن يتنقل بحركة ذاتية فيه، إلا إذا كان في وسط مادي أقل كثافة من كثافته. وكلما ازدادت كثافة المادة التي يسبح فيها إلا وصعبت عليه الحركة. وبذلك جاء التعبير القرآني: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس:٤٠)، دالاً على تناغم حركة الأجرام السماوية في نسق السبح العام المنضبط بفعل الفارق بين كثافة مادة الأجرام وكثافة مادة الكون من جهة، وبين كثافة كل جرم مع الجرم الذي يحوم حوله من جهة أخرى... مما يجعل القمر يدور حول الأرض، والأرض بقمرها تدور حول الشمس، والشمس بكواكبها في فلك المجرة، وكل مجموعة تنضبط في فلكها داخل منظومة الكون الفسيح.

إذن، هذه الفاعلية الذاتية التي أودعها الله تعالى في كيان الأجسام السماوية لتظل سابحة في الفضاء إلى مدة أجلها، تضيف عليها من الانتظام والانسجام ما لا يمكن التعبير عنه إلا بما جاء به الوصف القرآني في قول الله تعالى: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَؤُوتٍ﴾ (الملك:٣). ولعل هذا ما وصلت إليه أحدث البحوث العلمية لأشهر عالم فلك أمريكي هو "ستيفن واينبرغ"، الحاصل على جائزة نوبل^(٤) الذي رفع الستار عن حقيقة لم تكن معروفة من ذي قبل، وهي ظاهرة التجانس الحاصل في الكون. فأظهر من خلال أبحاثه أن الأجسام السماوية تخضع لظاهرة بديعة من التجانس، تتداخل فيها المجرات فيما بينها محيطة بالأرض من جميع الجهات. وهذا يفيد أن الخصائص المميزة لكل مجرة ستتوحد في انسجام تام مع خصائص المجرات الأخرى، كما بين ذلك

جاء في تفسير القرطبي لقول الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ (الذاريات: ٧) أن عكرمة قال في تفسير "الحبك": "ألم تر إلى النساج إذا نسج الثوب فأجاد نسجه، يقال منه: حبك الثوب يجبكه حبكاً أي أجاد نسجه". وفي الجالين: "الحبك" هي الطرق. ولعل في التعبير الدقيق لقوله تعالى ﴿ذَاتِ الْحُبُكِ﴾، إشارة إلى أن السماء هي التي تتولى مهمة حبك نسيجها، تماماً كما تقوم العنكبوت بنسج خيوطها من جهداها الذاتي. وهو دلالة أخرى على تلك الفاعلية الذاتية للأجسام السماوية في بناء نسيج الكون كما تقر بذلك التقارير العلمية

لعلماء الفلك، تلك التقارير التي باتت اليوم أكثر استعمالاً من أي وقت مضى لمصطلحات القرآن الكونية مثل؛ "نسيج الكون" (Cosmic Web)، و"بناءه" (Cosmic Building)، و"توسعه" (Expansion)، و"تزيينه بالمصابيح" (Beads on a String)، و"حبكه" (Filaments)، وما إلى ذلك من المصطلحات التي تؤكد سبق العلمي للقرآن الكريم ودقة تعبيره البلاغي.

وحدة المنشأ وآنية التكوين

إذا تبعت هذه "الحبك" في الكون إلى مركز النسيج، وصلت إلى مجال السماء الدنيا وهي المحيطة مباشرة بالأرض، فوجدتها زينت للإنسان بالمصابيح. فإذا أتممت المسير في اتجاه المركز، ولجت نطاق ما بين السماوات والأرض الموصوف عند الله بقوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ (مريم: ٦٥)، فتبين لك المغزى من الإشارة إلى البينية في التلميح إلى مركزية الأرض من السماوات السبع المحيطة بها... تلك البينية التي تحمل في طياتها دلالات قوية على وحدة المنشأ، لا يسطع ضوءها إلا من خلال إطلالنا على البعد الزمني لنمو كل من السماوات والأرض. فقد جاء في كتاب الله ما يشير إلى تقديم خلق السماوات على خلق الأرض، كقوله ﷻ: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿۱﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿۲﴾ وَأَعْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿۳﴾ وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ (النازعات: ٢٧-٣٠)، كما جاء فيه أيضاً ما يفيد تقديم خلق الأرض على خلق السماوات، كقوله

فالكون، هذا البناء الرائع ذو النسق الكامل حول الأرض، لا يمكن أن يُتصور بهذه الروعة في الجمال وهذا التناسق في الكمال، إلا لمعنى دقيق وقصد عميق غايته الإنسان الكامل الذي من أجله خلق، إذ كان مستحضراً في صلب موضوعه منذ اللحظة الأولى لبنائه.

تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٩)، مما يعني أن خلق السماوات والأرض يبقى مشمولاً في تدبير الله المنزه عن الزمان والمكان، بخاصية المصاحبة الزمنية التي تدل على وحدة المنشأ وآنية التكوين. وهو ما وقف عليه المفكر الإسلامي الفرنسي "موريس بوكاي" (٥) حيث قال في شأن التحديد الزمني لمراحل خلق السماوات والأرض: "المذكور (يعني في القرآن) هو مجموعتان من الظواهر، جزء منها أرضي والآخر سماوي. وقد

حدث كلاهما في اتصال مع الآخر، وبالتالي فذكر هاتين المجموعتين من الظواهر، يعني أن الأرض كانت بالضرورة موجودة قبل أن تمتد، وعليه فقد كانت موجودة حين بنى الله السماوات. وينتج من هذا فكرة المصاحبة الزمنية لنمو كل من السماوات والأرض بشكل تتداخل فيه الظاهرتان".

من ناحية أخرى، ومما يزيد مشهد وحدة بنیان السماوات والأرض وضوحاً، ما جاء به كتاب الله من وصف لتوحد أقطار السماوات والأرض في الإشارة الواردة في قول الله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ (الرحمن: ٣٣)؛ فكون كلمة "أقطار" ورد ذكرها موحداً بين السماوات والأرض، يعني أن السماوات والأرض شكلت -وما تزال- وحدة متكاملة، لأن القطر في الاصطلاح الهندسي، يعني الخط الواصل بين طرفي شكل معين مروراً بمركزه... فإذا تصورنا الأقطار كخطوط تمر بمركز الأرض لتستقيم في جميع الاتجاهات السماوية المتعامدة مع سطحها، فسيبدو لنا عالم السماوات والأرض كشكل متكامل تحيط فيه السماوات بالأرض حول مركز كائن في نواتها. وذلك ما يحمل الإشارة إلى توسط الأرض لعالم السماوات، ووجود الإنسان في قلب هذا البناء.

الإنسان هو المقصود

وهنا يبدو لنا مضمون قرار الأرض من مفهوم التوسع القائم

خلص فيه -رحمه الله- إلى "أن الإنسان عمَد السماوات والأرض، وأن العالم لا معنى له بدون وجود الإنسان، فإذا الإنسان كان المقصود من خلق السماوات والأرض، فإذا انقضى أجله خرت السماوات على الأرض بزواله، وانتقلت العمارة إلى الآخرة من أجله".

إلا أن هذا الإنسان العمَد الذي من أجله خلق الله السموات والأرض، والذي من أجله يمسك سبحانه السماء أن تقع على الأرض ليس أي إنسان، وإنما ذاك الذي نجد الإشارة إليه واردة في قول رسول الله ﷺ: "لا تقوم الساعة وفي الأرض من يقول الله الله" (رواه مسلم)، أي ذاك الإنسان الخليفة الذي من أجله يؤخر الله قيام الساعة. لأنه إذا كان القرآن خاطب برفع السماء بلا عمَد في قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ (الرعد: ٢)، فإنه بالمقابل يخبرنا في قوله سبحانه: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (الحج: ٦٥) أن ذلك الرفع الذي تولاه سبحانه بقوته وحفظ به العباد برأفته ورحمته، إنما هو من أجل ذلك الإنسان الذي بصفاء فطرته ونقاء سيرته، بقي منسجماً مع نظام الكون، متكاملًا مع كماله، قائمًا بحق الخلافة. فإذا انعدم الكمال من الإنسان اختل كمال الكون لانعدام المناسبة، فقامت الساعة التي كما جاء في الحديث: "لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق" (رواه مسلم). ■

(١) كلية العلوم، جامعة ابن طفيل / المغرب.

الهوامش

(١) Hubble (1936): The realm of the Nebulae, Yale University Press

(٢) Sciences et Vie H.S. n°:221, Dec. 2002, Paris, p:37.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، دار الشعب، القاهرة.

(٤) Weinberg S. (1978): Les Trois Premières Minutes de l'univers. Ed. Seuil, n°:144, p:211.

(٥) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، لموريس بوكاي، دار المعارف ١٩٧٨، بيروت.

(٦) نقد النصوص للشيخ بدر الدين عبد الرحمن بن أحمد الجامي (ت ٨٩٨هـ) في شرح نقش الفصوص، للشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي الحاتمي (ت ٦٣٨هـ)، دار الكتب العلمية ٢٠٠٥، بيروت.



في البناء السماوي المتعامد معها الوارد في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ (غافر: ٦٤). فالكل يشكل وحدة متماسكة بين كتلتين لا ينبغي لأي منهما أن تزول عن الأخرى، كما جاء في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ (فاطر: ٤١) في إشارة إلى أن السماوات -وإن ورد ذكرها بصيغة الجمع- فهي لا تشكل في سياق الآية سوى كتلة واحدة تقابل كتلة الأرض في تماثل شامل. كما يقر بذلك فعل "زال" الذي جاء بصيغة المثني "تزولا - زالتا" وليس بصيغة الجمع، للدلالة على تطابق كتلتين كانتا ملتصقتين عند بدء التكوين: ﴿أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ ففصل الله بينهما ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ بظاهرة التوسع التي انطلقت بحدثة فتق "الرتق"، لتظل سارية في جميع الاتجاهات الكونية المتعامدة مع الأرض، مما يوحي بأن الأرض كانت في قلب البناء الكوني منذ اللحظة الأولى، وأن الإنسان الذي من أجله خلقت، كان قبل أن يوجد فيها مستحضرًا في صلب موضوعها، وكأنه كان عين القصد من كل ذلك.

وهذا ما ختم به عالم الفيزياء الفلكية الأمريكي "ستيفن واينبرغ" كتابه "الثلاث دقائق الأولى للكون" قائلاً: "من المستحيل ألا يعتقد الإنسان بوجود علاقة خاصة بينه وبين الكون، أو أن يعتقد بأن الحياة إنما هي إفاضة لسلسلة حوادث راجعة إلى الدقائق الثلاثة الأولى للكون، بل من المؤكد أننا كنا مستحضرين منذ البداية". وهو ما سبقه إليه "ابن عربي" منذ أزيد من (٩٠٠) سنة في كتابه "نقش الفصوص" (٦) الذي

الوقف العثماني

حضارة واقتصاد

أسست الأوقاف في التاريخ الإسلامي، من أجل تقديم الخدمات المختلفة إلى الإنسان والأحياء الأخرى من الحيوانات. وكانت مؤسسات الأوقاف -بلا شك- واحدة من العناصر المؤثرة التي استطاعت الارتقاء بأنماط العيش وتأمين الحاجات الاجتماعية للناس الذين يعيشون في ظل

الدولة العثمانية حتى في مناطقها النائية.

وإذا ما تأملنا في مفهوم الوقف لدى الدولة العثمانية، نجد أنه مزيج من الشرقي الممتد من حضارة الأيوغور إلى السلاجقة، والغربي الممتد من الإمبراطورية الرومانية إلى الإمبراطورية البيزنطية. فقد ورثت الدولة العثمانية هذا الميراث المتمزج الديناميكي، وطورته وصبغته بقيمتها وثقافتها الدينية.

لقد لعبت هذه المؤسسات القانونية، دورًا هامًا في تطوير الحياة الاقتصادية والاجتماعية لدى الدولة العثمانية والبلدان الإسلامية كافة. يقوم النظام الوقفي على فعاليات مؤسساتية قانونية، للرعاية الاجتماعية

أ

التي تضمن استمرارية المجتمع. وبهذا المعنى، فإن فعاليات الأوقاف التي نشطت في الدولة السلجوقية والعثمانية، نمت نموًا كبيرًا بتأثير الحقوق والأحكام الإسلامية. ويعتبر "أورخان غازي" ثاني سلاطين الدولة العثمانية، هو أول من أسس نظام الأوقاف التي نمت بشكل منسجم بالنمو الاقتصادي والسياسي للدولة. وعندما أمر أورخان غازي ببناء أول مدرسة عثمانية في إزنيك، أوقف لها من الأموال غير المنقولة (العقارات) لتسد حاجاتها من المصاريف والنفقات. واقتدت بها أوقاف أخرى قامت لأغراض مختلفة، كتقديم الأموال لليتامى، وللأرامل، وللغارمين المدنيين، وكتوزيع الخضار والفاكهة للمواطنين، وكرعاية الكبار العاجزين كقواد القوارب والحمالين، وكتأمين إرضاع الأطفال، وتجهيز البنات للزواج، وتأمين بدل الأواني والصحاف التي يكسرها الخدم لكي لا يتعرضوا للعقاب من أسيادهم، وكإطعام الطيور، وشراء الألعاب للأطفال، وتأمين حاجيات المسافرين، والإنفاق على طلبة العلم وتأمين الإقامة لهم، وتأمين العمل للعاطلين، وكذلك التدريب المهني، ومؤازرة المفلسين والمدنين، وتزويج الشباب، وحماية الحيوانات، وتأمين نظافة الطرقات... بالإضافة إلى تأسيس أوقاف تمويلية لشق قنوات المياه، وإنشاء القناطر، وبناء سبل المياه، وحفر الآبار، وبناء المدارس والخانات والحمامات والجوامع والطرق والأرصفة والجسور... وبتحويل من الأوقاف قامت المشافي بتقديم خدماتها للمحتاجين، وتقاضى الأطباء أجورهم منها، ويجري في هذه المشافي علاج المرضى من غير تمييز في لون أو عرق أو دين، ويجري كذلك تأمين الأطباء، كما يتم تقديم الدواء مجانًا إن لزم الأمر، وتقديم وجبة أو وجبتين من الطعام يوميًا في العمارات لأبناء السبيل والمسافرين والفقراء والمساكين.

مؤسسة الأوقاف والاقتصاد العثماني

النظام الاقتصادي في الدولة العثمانية - إلى جانب الإقطاع الذي ورثته من الدول الإسلامية المتلاحقة - كان يقوم على مؤسسات الفتوة والأخية التي تعتمد على العدالة في أساسها. كان الاقتصاد العثماني يعتمد بنسبة كبيرة على الزراعة، الأمر الذي أكسب أنظمة الأراضي مكانة متميزة ضمن البنى الاقتصادية العثمانية. ونظام الأراضي هذا، كان يتمثل بنظام التيمار؛ وهو نظام يتم من خلاله استخدام الأراضي من قبل

الرعايا مقابل الوفاء ببعض الالتزامات كتوريد عُشر المحصول لصاحب التيمار، ودفع الضرائب المقررة. كما كان أصحاب التيمار بالمقابل، ملزمين بتقديم الجنود إلى الجيش أثناء الحرب، وذلك بما يتناسب مع حجم محصول تيمارهم. ظل التيمار قائمًا كوسيلة اقتصادية للقوة العسكرية العثمانية، إذ لم تقم الدولة بجمع الموارد الزراعية في مركز واحد، إنما أعطتها لسباهية التيمار (الفرسان) لتتمكن من تأمين جنودها أثناء الحرب من جانب، ومن تأمين مواردها الزراعية أثناء السلم من جانب آخر، وهذا وفر لها نظامًا ديناميكيًا حركيًا بلا شك.

في القرن السادس عشر، كانت نسبة ٢٠٪ من الأراضي تدخل ضمن نظام الأوقاف لدى الدولة العثمانية، وكان حوالي ١٥٪ من موارد الدخل للأوقاف تتكون من الأسهم المقبوضة من واردات الدولة. ففي هذه الحقبة، كانت واردات الأوقاف تشكل ١٢٪ من بين الواردات العامة. وقد ازدادت هذه النسبة فيما بعد لتبلغ ٢٠٪، مع الأخذ بعين الاعتبار، أن واردات أراضي الأوقاف فقط هي الداخلة في حسابات النسب السابقة. هذا وقد وصلت نسبة رجال الدولة الذين قاموا بتأسيس الأوقاف في القرن التاسع عشر إلى ٤٢٪، ونسبة ١٦٪ من العلماء، و ٩٪ من أصحاب الطرق الصوفية، و ٢٪ من أصحاب الحرف والصناعات، و ١١٪ من أصحاب مختلفي المهن، و ١٨٪ من النساء.

ونظام التمويل الذي تقوم عليه الأوقاف آنذاك، يملك دورًا مهمًا في خدمات الثقافة والتعليم والصحة والبنية التحتية وأشغال المرافق العامة والخدمات الدينية والاجتماعية، علاوة على المساهمة في تأمين التمويل والبنية التحتية اللازمة للضمان الاجتماعي، والعمل الخيري في مختلف الميادين. ففي تركيا اليوم -مثلًا- يبلغ الإنفاق الإجمالي على الصحة، والتعليم، والضمان الاجتماعي، والفعاليات الدينية، والخدمات العامة، (١٠٠) مليار ليرة تركية! وهذا الرقم الذي يعدّ عبئًا ثقيلًا على ميزانية الدولة في عصرنا، كانت الأوقاف تقوم بحمله لوحدها في العهد العثماني.

الأوقاف والخدمات العامة

كانت الأوقاف تلعب دورًا مهمًا في الإعمار والإسكان إبان العهد العثماني. فالخدمات العامة التي تلقاها المدن، ومؤسسات الرعاية الاجتماعية، والخدمات التعليمية،

والدينية، وكل الحاجات الاجتماعية، كانت تلبى من قبل مؤسسات الأوقاف.

لقد تم دعم الأوقاف عن طريق مصدرين أساسيين: الأول هو المؤسسات الوقفية القائمة على مصادر الدولة، وهي على الأغلب أوقاف يقوم بتأسيسها رجال الدولة وعلى رأسهم السلطان وأبناء آل عثمان. والميزة الأساسية لهذه الأوقاف، تكمن في تحويل جزء من الأموال المخصصة للبيروقراطيين من قبل الدولة، واستخدامها في الأنشطة الوقفية الخاصة. ونرى أن تشكيل المؤسسات الوقفية التي تستمر في عطاءاتها حول سد الاحتياجات الدينية والعلمية والصحية والثقافية للمدن، أصبحت تقليدًا متبوعًا بين رجالات الدولة. والمصدر الثاني لنظام الأوقاف، يشمل أوقاف المواطنين العثمانيين الأخيار، الذين يبتغون مرضاة الله، ويسعون وراء الأعمال الصالحة التي تفيد الشعب والمجتمع. وهذه الأوقاف وإن كانت صغيرة الحجم من حيث التمويل، فإنها لعبت دورًا كبيرًا لصالح الحياة الاجتماعية والاقتصادية.

وعليه فإن هذا النوع من نظام الأوقاف الخيرية، الذي أبدى تطورًا مستمرًا في العهد العثماني، شكّل عنصرًا مهمًا في تمويل الخدمات، وساهم في نمو المدن العثمانية وازدهارها. ومن ثم أدت هذه الأوقاف مهمة كبيرة في ارتفاع مستوى المعيشة ومن ثم الحياة الاقتصادية والاجتماعية في كافة أرجاء الأراضي العثمانية.

إذن، تمتعت الأوقاف بمكانة رفيعة مرموقة لدى الدولة العثمانية، وأصبحت جزءًا أساسيًا من حضارتها. إذ أقامت

الخانات التجارية الوقفية، والأسواق لكافة الأمتعة والسلع؛ من أقمشة ومجوهرات وأسلحة... وشيدت القصور الوقفية العديدة على الطرق بين المدن والمناطق لتحط القوافل التجارية وقوافل المسافرين رحالها، وتستريح وتأمين شرّ الأتقياء وقطاع الطرق... علاوة على أن هذه الأوقاف، ساهمت في تطور الفنون الجميلة كالخط والتذهيب والزخرفة والأبرو (فن الرسم على الماء) وتجليد الكتب، حيث كانت سببًا لآثار فنية عالية المستوى. كما أن للأوقاف أهمية كبيرة أيضًا، في مجال اللغة والثقافة والتاريخ والقانون وحتى في الفولكلور.

باختصار، لم تترك الأوقاف لدى الدولة العثمانية، ميدانًا من الميادين الاجتماعية، ولا أرضًا من الأراضي العثمانية، إلا ودخلتها وقدمت الخدمات لأهلها. وبفضل هذه الأوقاف، استمرت خدمات التعليم، والصحة، والخدمات الدينية، والثقافية، من غير خلل أو تقصير، حتى في فترات المحن والأزمات الداخلية والخارجية للدولة.

ومما يجدر ذكره، أن الأوقاف التي تقدم الخدمات الثقافية والاجتماعية للمجتمع اليوم، والتي تبنها الدول وتقوم هي بإدارتها وتمويلها، كانت تؤسس وتُدار وتموّل من قبل أشخاص عاديين في العهد العثماني! ومن الصعب جدًا، أن نجد اليوم دولة من الدول، يقوم أفرادها باستقلال ذاتي بتمويل الخدمات العامة، كما كانت الحال في الدولة العثمانية. ■

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: مصطفى حمزة.



المنهاج النبوي والقضايا الاجتماعية الكبرى

في المجتمع الإنساني.

وفي خضم هذا كله، ظهرت مشكلات اجتماعية كان لها أكبر الأثر في حياة الإنسان، كمشكلة الأمية، ومشكلات الأسرة عامة، والعلاقة بين الرجل والمرأة خاصة، ومشكلة التربية والقيم، وكذا سوء توزيع الثروة وغيرها من المشكلات التي تمثل القضايا الاجتماعية الكبرى.

هذه بعض القضايا الكبرى التي تمس مجتمعاتنا، بما لها من تبعات جسيمة تجعل لها أولوية في اهتماماتنا... وحيث إن الإسلام نسق مفتوح ودين واسع، فقد وضع جواباً لكل سؤال وفي كل عصر وكل شأن من شؤون الأمة. وقد وصف النبي ﷺ المؤمن فقال: "وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شأنه، حافظاً لسانه، ومن حسب كلامه من عمله،

إن الروابط الإنسانية ركن أساسي من أركان أي مجتمع بشري. فالاجتماع الإنساني كالبناء بحاجة إلى ما يربط وحداته بعضها ببعض، ويجعل منها جسماً واحداً. وهذه الروابط التي يستدعيها الاجتماع الإنساني، هي روابط أدبية بين أفرادها في نواح عدة تجمع بينهم وتسير بهم نحو غرض واحد، وبهذا فقط يصلح المجتمع للحياة المشتركة.

وقد تطورت هذه الروابط من البساطة التي وجدت عليها في المجتمع الإنسان البدائي، حتى استقرت في المدينة الحديثة فصارت أكثر تعقيداً وتشعباً، وتطورت روابط المجتمع إلى علاقات متداخلة احتاجت إلى علوم جديدة، وعمليات اجتماعية واقتصادية، زادت من التعقيد والتشعب

قل كلامه إلا فيما يعنيه" (رواه ابن حبان)، وهي قاعدة في السعي لابد أن نعيها ونعي كيف نعمل بها.

والتأمل في المنهج النبوي، يجد أن النبي ﷺ قد وضع الأسس الجامعة التي تصلح في القضاء على الأمراض المجتمعية المختلفة، ومعالجة هذه القضايا، وجعل العالم كله أمة واحدة في ظل أرقى الأصول الاجتماعية.

فهذا المنهج حوّل الروابط الإنسانية من القيام على المصالح المادية والاعتبارات العصبية، إلى روابط مستمدة من المبادئ الإنسانية والأصول

العامة، التي تتفرع عنها قوانين ضابطة لتصرفات الناس في معاملاتهم.

فالمسلم الحق، يشعر بمدى جمال وكمال الروابط الإسلامية مع أفراد مجتمعه، وتتمتع روحه بالقيام بواجباته الاجتماعية، وتجده يدافع عن وشائج ارتباطه بهذا المجتمع... فهو لا يقوم بهذه الارتباطات المجتمعية طلباً للدنيا ولا رغبة في الذكر، بل يقوم بها مدفوعاً بطلبه أكمل الغايات الاجتماعية والوصول لأرفع الكمالات الوجودية. وهذا الاجتماع هو ما عبر عنه النبي ﷺ بقوله: "ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم، كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى" (رواه البخاري).

أسس المنهج النبوي في علاج المشكلات

لقد قام المنهج النبوي على أسس عدة في علاج القضايا الاجتماعية الكبرى. وهذه الأسس هي:

١- **الاهتمام بالعلم:** ولا غرو فقد كانت "القراءة" أول ما نزل من القرآن الكريم، وفاض الكتاب الحكيم بآيات عدة تبين مكانة ومنزلة العلم والتعلم في شريعة الإسلام... وبين ﷺ أن المسلم لا يرتفع بفضيلة كما يرتفع بفضيلة العلم فقال: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (المجادلة: ١١)، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (فاطر: ٢٨).

والعلم الذي ندب إليه الرسول ﷺ وحث على النهل منه هو كل علم؛ قوامه التفكير والتأمل بالعقل للاهتمام إلى آيات الكون إلى خالقه. هو العلم الذي يجعل آدمي جديراً بأن

التأمل في المنهج النبوي،
يجد أن النبي ﷺ قد وضع
الأسس الجامعة التي تصلح
في القضاء على الأمراض
المجتمعية المختلفة، ومعالجة
هذه القضايا، وجعل العالم
كله أمة واحدة في ظل أرقى
الأصول الاجتماعية.

يستخلف في الأرض، وينهض برسالة الله، ويدرك إدراكاً حقيقياً شاكراً -من واقع علمه وفهمه- أن الخالق سبحانه، قد سخر له هذا الكون في أرضه وسماؤه وكواكبه وأجرامه وشمسه وقمره ومائه وهوائه... لحكمة عميقة سامية تعبر تعبيراً ناطقاً حياً عن جلاله سبحانه وجماله وأفضاله... وتدفع الآدمي عرفاناً وفهماً وتقديراً أن يكون جديراً بهذا الاستخلاف، بالعلم والفهم والحكمة، والنشاط والسعي لعمار الأرض لا لخرابها، ولإثراء الحياة لا لإفقارها، يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي

جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلِغَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأنعام: ١٦٥).

إن العلم المندوب إليه في سنة الهادي البشير ﷺ لم يقتصر على مجال دون مجال، فقد حض المسلم على أن يضرب في الآفاق طلباً للعلم أياً كان، يقول عليه الصلاة والسلام للمسلمين: "العلم خزان ومفتاحها السؤال، فاسألوا يرحمكم الله، فإنه يؤجر فيه أربعة: السائل والمعلم والمستمع والمجيب لهم" (حلية الأولياء: ٣/١٩٢)، وقال ﷺ: "من خرج في طلب العلم، فهو في سبيل الله حتى يرجع" (رواه الترمذي).

٢- **العمل:** من أسس علاج القضايا الاجتماعية كما يظهر في المنهج النبوي، هو العمل. فلم يقتصر المنهج النبوي على الحث على العلم فقط، بل قرر أنه لا علم بلا عمل، ولا نجاح لغاية الاستخلاف في الأرض وحكمته إلا به، ولا مقياس لإخفاق الآدمي أو فلاحه إلا بعمله وسعيه وكده وبذله محوفاً مدفوعاً بالعقل والفهم والعلم.

ولذلك حض ﷺ على العمل بما نعلم، وربى أصحابه على تركية أرواحهم وبناء شخصياتهم، وتحمل مسؤولياتهم الدينية والدنيوية، وأرشدهم إلى الطريق التي تساعدهم على تحقيق ذلك. ولم يكتف ﷺ بالحث على العبادات الظاهرة، بل ربى أصحابه -كذلك- على مكارم الأخلاق بأساليب متنوعة... وكان الرسول ﷺ يعرض الأخلاق مع العبادة والعقائد في وقت واحد، لأن العلاقة بين الأخلاق والعقيدة واضحة في كتاب الله تعالى.

ولأن العمل من لوازم تعمير الدنيا والآخرة، وذلك لأنه من لوازم الحياة وبقاء النوع ومقتضى الفطرة، وضع ﷺ نظاماً خاصاً للعمل فربطه بالنية، فصلاحه بصلاحها وفساده بفسادها، فقال: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى" (رواه البخاري). وتحقيقاً لمبدأ تكافؤ الفرص الذي يعد صورة من العدالة الاجتماعية، جعل النبي ﷺ العمل حقاً للفرد واجباً على الدولة توفيره، فلا يجوز للدولة أن تتعاضد عن أداء هذا الواجب الاجتماعي الخطير حتى لا تعطل طاقات الأفراد ونشاطاتهم، وتحرم الأمة من جهودهم ومواهبهم. ولقد كان النبي ﷺ يعين من لا عمل له بتأمين العمل، كما قرر ﷺ أنه لا امتياز لأحد في نوع معين من العمل بالنظر لغناه أو ثراء أسرته أو نفوذها، إنما فرص العمل يجب أن تكون مهيأة للجميع كل على حسب كفاءته وقدرته وموهبته... ومن هنا وجب على الدولة أن تختار للقيام بوظائفها الأصلح والأكفأ، قال ﷺ: "من ولي من أمر المسلمين شيئاً فولى رجلاً وفي الأمة من هو أصلح للمسلمين منه، فقد خان الله ورسوله" (رواه البيهقي). ولذلك كان لا بد من التزام مبدأ التخصص، لتتم الكفاءة والإتقان فيما تقتضيه كل وظيفة بحسب طبيعتها.

٣- التوازن: ويتمثل في أمور عدة، منها المساواة بين الأفراد لا التساوي. فالشرع الإسلامي إذ يقول بالمساواة بين الرجل والمرأة مثلاً في الحقوق والواجبات، فإنه لا يقول بالتساوي بينهما في الصفات الخلقية والفطرة الربانية والوظائف التكليفية... فهذا لا يقول به عاقل. وعلى هذا فإن الدعوة إلى التساوي بينهما، نوع من أنواع الظلم، والزج بكل منهما في طريق مظلم لا يتفق مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ويكلف كلاهما شططاً لا يطيقه، أما ما يتفق والتوازن الذي أسسه المنهج النبوي فهو المساواة.

فالمساواة في الإسلام، لا تعني أبداً القضاء على الاختلاف أو التمايز بين الناس، إذ الاختلاف سنة كونية من سنن الله في خلقه، وهو حقيقة واقعة في الخلق، ولا يمكن محوها أو التغافل عنها، ولكن المساواة تعني العدالة، والعدالة تكون في عدم التفرقة بين الإنسان فيما يخرج عن فعله واختياره، ولذا يجب أن تطبق مفاهيم المساواة الإنسانية في إطار من احترام الاختلاف والتمايز بين الناس، وعدم الاعتداء على هويتهم الذاتية أو محاولة مسحها أو محوها.

وقد قرر ﷺ المساواة كمبدأ عام بين الناس جميعاً، وجعله مهيمناً تسري روحه كدعامة لجميع ما سنه وقضى به من

نظم وأحكام تضبط علاقات الأفراد رجالاً ونساء. وكان من تقديره لقيمة الإنسان المشتركة بين الجميع، تكريم الجنس البشري بنوعيه دون تمييز بين رجل وامرأة.

وفي حديث رسول الله ﷺ أنه قال: "إن أنسابكم هذه ليست بسبب على أحد، وإنما أنتم ولد آدم، طف الصاع لم تملؤوه، ليس لأحد على أحد فضل إلا بالدين أو عمل صالح، حسب الرجل أن يكون فاحشاً بذياً، بخيلاً جباناً" (رواه الإمام أحمد).

والمساواة بين الناس لا معنى لها إذا لم تعززها عدالة اقتصادية واجتماعية تضمن لكل فرد حقه إزاء ما يقدمه لمجتمعه، وتكفل ألا يستغل أحدٌ أحداً أو يبخسه حقه... فالتفاوت الفاحش في الدخول والثروات، الذي نراه اليوم منتشرًا في كل الدول الإسلامية ينافي جوهر الإسلام، لأن فيه قضاء محتملاً على مشاعر الأخوة التي يريد الإسلام بثها بين المسلمين.

إن عدالة التوزيع للثروة بين المواطنين، من شأنها أن توفر لكل فرد مستوى من المعيشة تهينه لأن يحيا حياة تليق بكرامة الإنسان، ويتوجب على النخبة من علماء الأمة بعد ذلك، أن تعمل على تأمين العمل لمن يبحث عنه، وإثابة العاملين بالأجر العادل، والتفكير في آليات لتفعيل النظام الاقتصادي الإسلامي الذي تمثل الزكاة والصدقات والوقوف فيه، ركناً رئيساً لإعادة توزيع الدخل على الفقراء الذين لا يستطيعون ضرباً في الأرض، أو يعانون من معوقات عقلية أو جسمية، أو يرزحون تحت وطأة ظروف خارجة عن إرادتهم.

٤- العدل: وهو قضية عظمى عليها قام الملك، وخلق إسلامي رفيع حث عليه الله ﷻ في الكتاب العزيز، وفي سنة النبي الكريم صلوات الله عليه وسلامه، يقول سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ (النحل: ٩٠)، ونهى النبي ﷺ عن الظلم في أكثر من حديث منها قوله ﷺ: "الظلم ظلمات يوم القيامة" (رواه البخاري)، وفيما يرويه نبينا ﷺ عن رب العزة أنه قال: "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا" (رواه مسلم).

ومن مظاهر تمام العدل بين الناس، إعطاء كل ذي حق حقه، ووضع الشيء المناسب والشخص المناسب في المكان المناسب، ومثال ذلك أن وجود نخبة من الناس تنصدر لحل المشكلات، ورسم طريق الخروج من الأزمات من قوانين الله وسننه الثابتة في كونه. ومفهوم النخبة نراه بارزاً في الكتاب والسنة، ومرتبطة بتاريخ البشر وواقعهم، بل هو واضح في سنة

الله تعالى في كونه. فقد فضل سبحانه بعض الأزمان على بعض، وفضل بعض الأماكن على بعض، وفضل بعض الأشخاص على بعض، وفضل بعض الأحوال على بعض، وجعل من هذا التباين سبباً لدفع الناس وتعارفهم وحرآكهم عبر حركة التاريخ، قال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (الزخرف: ٣٢). وقال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

إِنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَكْلِفِ النَّاسَ بِالدِّينِ كُلَّهُ مَرَّةً وَاحِدَةً، بَلْ بَدَأَ بِالْأَهْمِ فَالْمَهْمِ، وَتَدْرَجَ مَعَهُمْ فِي تَفْصِيلِ الْعُقَائِدِ وَالْأَحْكَامِ طَوَالَ فِتْرَةِ الْبَعْتَةِ عَلَى أَسَاسِ تَرْتِيبِ الْأَوْلِيَاةِ، فَاعْتَمَدَ عَلَى تَثِيَةِ الْعَقِيدَةِ أَوَّلًا، ثُمَّ تَدْرَجَ مَعَهُمْ إِلَى بَيَانِ الْقِيَمِ الدِّينِيَّةِ وَالْأَحْكَامِ الْعَامَةِ الَّتِي نَزَلَتْ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ.

في تبليغهم حديث رسول الله ﷺ لطلبة العلم على أن يستفتحوا بحديث الرحمة المسلسل بالأولية: "الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم من في السماء" (رواه أبو داود)، وورد عن رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة تحث المسلمين على التخلق بالرحمة فيما بينهم ومع جميع الخلق... وقد حذر رسول الله ﷺ أمته، بأن ترك هذه الصفة الحميدة قد يستوجب غضب الله يوم القيامة حيث قال: "لا يرحم الله من لا يرحم الناس" (رواه البخاري)، وقال الصادق ﷺ: "لا تُنزع الرحمة إلا من شقي" (رواه أبو داود).

٦- مراعاة الأعراف السائدة في المجتمع: يقول ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ (الأعراف: ١٩٩)، فكل ما شهدت به العادة والعرف مما لم يتصادم مع ثوابت الإسلام، قضي به لظاهر هذه الآية إلا أن تكون هناك بينة تمنع من هذا... وقد ورد في الخبر أن "ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن"، والمعنى: أن كل ما رآه المسلمون يعقلهم من العادات وغيرها مستحسناً، فهو حسن عند الله يقبله ويعتد به، ووجه الأخذ لاعتبار العرف من هذا الخبر، أنه إذا كان كل ما رآه المسلمون مستحسناً قد حُكم بحسنه عند الله واعتباره، فكذلك إذا كان العرف مما استحسنته المسلمون في المجتمع كان محكوماً باعتباره.

٧- التدرج في التشريع: فلم يكن يحمل الناس على الأحكام جملة واحدة، إنما كان مبدؤه التدرج... فهو القائل: "يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا" (رواه البخاري). وقد كان التدرج في عهد النبوة يعتمد على محورين أساسيين: الأول: بيان الأحكام الشرعية بالتدرج حسب نزولها من السماء، وتفسيرها وبيانها من رسول الله ﷺ حتى تكامل الدين وتم بناؤه. وقد انتهى هذا الجانب بانقطاع الوحي، ولكنه يبقى نموذجاً وأساساً أمام العلماء في الاجتهاد في المستجدات والوقائع الجديدة.

الثاني: هو التطبيق العملي للأحكام الشرعية التي كانت تنزل وتُفسر وتُبين، وكان هذا التطبيق بالتدرج أيضاً. وقد ورد في السنة الشريفة أحاديث كثيرة تصرح بالتدرج

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ (البقرة: ٢٥٣)، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (النساء: ٥٩). فجعل الله للناس رؤوساً، وجعل ذلك طبقاً لكفائاتهم، ورغبتهم في الإصلاح دون الإفساد، ونعى على ذلك التصور الذي يكون فيه جميع الناس في تساوي مطلق.

وعدم التساوي لا يعني أبداً عدم المساواة كما سبق وبيننا، ولكن وجود النخبة والصفوة يؤدي إلى حل المشكلات، وإلى الأمن والاستقرار بين الناس. وعلى المسلمين جميعاً أن يحافظوا على هذه النخبة ويدافعوا عنها ويعينوها على تحقيق الدور الذي كلفت به... وهذا لا يعني أن هذه النخبة فوق القانون، ولكن عند توجيه الاتهامات، يجب أن تبنى على حقائق ثابتة، وليس على أحداث مختلفة أو خيالات مريضة. فوجود هؤلاء الحكماء والمحافظة عليهم، بل وإقالة عثرتهم إذا عثروا، أمر واجب على الناس جميعاً، وهو مثال للعدل بوضع الشخص المناسب في المكان المناسب، الذي يمثل أساساً من أسس المنهج النبوي في علاج القضايا الاجتماعية.

٥- الرحمة واستعمال الرفق لا العنف: فالرحمة من الأخلاق التي مدحها الله ورسوله في الكتاب والسنة، وهي من الأخلاق التي يترتب عليها كثير من الخير في الحياة الدنيا بمجالاتها المختلفة، كما يترتب عليها كثير من الثواب في الآخرة. ولأن هذه الأمة هي أمة الرحمة والهداية، دأب المحدثون

في التشريع، من أشهرها حديث إرسال معاذ إلى اليمن؛ فقد أرشد رسول الله ﷺ معاذًا إلى منهج التدرج في التنفيذ والتطبيق بقوله له: "إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله ﷻ، فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا فعلوا فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإذا أطاعوا بها فخذ منهم وتوق كرائم أموالهم" (رواه مسلم)، فرسم أمامه الهدف الأول في تقدير الإيمان الصحيح بالشهادتين وترسيخ أصوله في النفوس، فإن تحقق ذلك انتقل إلى تكليفهم بركن الإسلام وعموده وهو الصلاة، فإن تحقق ذلك كلفهم بالفريضة المتعلقة بأموالهم.

إن رسول الله ﷺ لم يكلف الناس بالدين كله مرة واحدة، سواء في العقيدة أو في الشريعة، بل بدأ بالأهم فالمهم، وتدرج معهم في تفصيل العقائد والأحكام طوال فترة البعثة على أساس ترتيب الأولويات، فاعتمد على تثبيت العقيدة أولاً، ثم تدرج معهم إلى بيان القيم الدينية والأحكام العامة التي نزلت على الأنبياء السابقين، ثم تدرج معهم إلى التكليف بالأوامر النواهي، وقدم في كل ذلك الضروريات الخمس وهي المحافظة على النفس والعقل والدين والنسل والمال.

٨- مراعاة الحال: سواء حال الإنسان وحال الجماعة وحال الأمة، بل حال العالم أجمع، فقد راعى ﷺ أحوال الناس في تطبيق الأحكام الشرعية والأمور السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكان تعامله مع الفرد مخالفاً لتعامله مع الجماعة من حيث كونهم جماعة، أو الأمة كذلك أو جميع الأمم، فلم يكن التعامل متماثلاً مع الجميع. ومن أكثر دلائل مراعاته ﷺ للأحوال ما ورد في عدم هدمه الكعبة، وإعادة بنائها على أساس إبراهيم؛ فإن قريشاً لما بنتها اقتصرتها بها، يقول ﷺ للسيدة عائشة رضي الله عنها: "يا عائشة لولا أن قومك حديثو عهد بشرك، لهدمت الكعبة، فألزقتها بالأرض، وجعلت لها بابين" (رواه مسلم).

إن الجمود على رأي واحد، وحكم واحد، وموقف واحد وإن تغيرت الأحوال، لم يكن من منهجه ﷺ. وقد رأينا النبي ﷺ يمنع الصحابة في مكة من أن يحملوا السلاح ليقاتلوا دفاعاً عن أنفسهم وهم يأتون إليه بين مضروب ومشجوج، ويأمرهم بالصبر وكف اليد، حتى إذا هاجر إلى المدينة وأصبح لهم دار ودولة، أذن الله أن يقاتلوا.

وروى الإمام أحمد أن النبي ﷺ سئل عن القبلة للصائم،

فرخص لسائل ونهى سائلاً آخر عن القبلة أثناء الصيام... وبالبحث تبين أن أحد السائلين كان شيخاً فرخص له أن يُقبل، وكان الآخر شاباً فنهاه عن التقبيل. وقد كانت إجابات النبي ﷺ تختلف من شخص لآخر عن السؤال الواحد، لأنه كان يراعي أحوال السائلين، فيعطي الإجابة لكل منهم بما يلائم حاله. إن سعة الشريعة ومرورها في مراعاة مستجدات الأمور، وصلت إلى إقامة الحدود التي تعتبر أصلاً من أصول التشريع. فلقد علمنا رسول الله ﷺ أن نراعي الأحوال التي تنشأ، والظروف التي تستجد مما يستدعي تغيير الحكم إذا كان اجتهادياً، أو تأخير تنفيذه، أو إسقاط أثره عن صاحبه إذا كان قطعياً. ومن ذلك ما ورد عن النبي ﷺ أنه نهى أن تقطع الأيدي في الغزو كما روى أبو داود، وهو حد من حدود الله تعالى. وقد نهى عن إقامة الحد في هذه الحالة، خشية أن يترتب عليه ما هو أبغض من تعطيله أو تأخيره، وهو لحوق صاحبه بالأعداء حمية أو غضباً. وما هو لا يعاقب المنافقين رغم ما بلغه عنهم، ويقول لـ"عمر" ﷺ لما أراد أن يقتل عبد الله بن أبي سلول: "دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه" (رواه البخاري). وفي هذا أعظم دليل على سعة هذا المنهج النبوي ومراعاته للأحوال والظروف والمستجدات.

ومع هذه المرونة وتلك السعة، فإن هناك مجموعة من الضوابط يجب أن تكون معلومة، حتى لا يتم استغلال الأمر فيما ليس له. ومن تلك الضوابط، أن مراعاة الحال يهدف إلى إبقاء الأمور تحت حكم الشريعة وإن تغيرت صورتها الظاهرية، ولا يعني بحال خروجاً على الشريعة واستحداثاً لأحكام جديدة، ومنها أن أهل العلم عندما قالوا بمراعاة الأحوال والعوائد ونحوها، إنما ذكروا ذلك لرفع الظلم عن العباد بالزامهم بما لم يلزمهم به الشرع، ومنها أن الذي يحدد تغير الأحوال والأعراف هم أهل العلم والمعرفة بالشرع، وليس أهل الهوى والجهل.

لقد قام النبي ﷺ من خلال هذه الأسس وذلك المنهج الشريف، بمعالجة الروابط الاجتماعية القائمة، فأبقى على الصالح منها وقاوم الفاسد، حتى أرسى وشيد روابط اجتماعية أسسها على أرقى نظام وأنفع منهاج يصلح لكل زمان ومكان. ■

(٤) مفتي الديار المصرية.

أسرار الجلد البشري

الجزء السطحي الظاهر من الجلد- فتتفرع إلى أربع طبقات تتوزع خلالها خلايا الجلد حتى تتمكن من القيام بوظائفها الفسيولوجية المنوطة بها. وتقسّم طبقة الأدمة -وهي طبقة الجلد الأخرى التي تلي البشرة- إلى طبقتين دقيقتين، ولكل منهما خلاياها الخاصة، وتضم بين ثناياها الكثير من الأعصاب والشعيرات الدموية والغدد الدهنية والعرقية. وللجلد البشري وظائف هامة، تجعله من أهم أعضاء الجسم اللازمة لاستمرار الحياة بصورة طبيعية لا يعترها داء أو سقم. فالإنسان لا يحيا من غير جلد، وفقد جزء كبير منه لأي سبب كان، قد يهدد حياة المريض، وذلك لأنه يعمل حاجزاً

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ٥٦).

ماذا عن تخصيص جلد الإنسان في هذه الآية دون غيره من أعضاء الجسم؟ وما الذي قصده تعالى من كلمة "نَضِجَتْ"؟ ولماذا تتبدل الجلود حينها بجلود غيرها؟ ولماذا كان التبديل خاصاً بالجلود؟

يتكون جلد جسم الإنسان من طبقتين هما "البشرة" (Epidermis) و"الأدمة" (Dermis). وتقسّم البشرة -وهي

ي

منبعًا بقي جسم صاحبه من دخول الجراثيم والأحياء المجهرية الضارة، التي يمكن لها غزو الجسم في حال عدم تغليف الجلد له، وبالتالي إصابته بالكثير من الأمراض الالتهابية. ويمنع الجلد كذلك، عملية تبخر سوائل الجسم، وبذلك تتم المحافظة على رطوبته ضمن حدودها الطبيعية. ويساهم الجلد أيضًا في تنظيم درجة حرارة الجسم، إذ يعمل على ضبط درجة الحرارة عند حدودها الطبيعية، وبذلك يتمكن الجسم من القيام بتفاعلاته الحيوية بشكل مضبوط.

أسباب الحروق الجلدية وتصنيفها

تحيط بنا الكثير من مصادر الطاقة والحرارة، التي تتفاوت شدتها بين خفيف ومتوسط وشديد، وذلك بناءً على قوة المصدر ومقدار ما ينبعث عنه من طاقة.

وتضم مسببات الحروق الجلدية التعرض للسوائل المغلية، كالماء المُعدّل للطهي والمشروبات الساخنة وزيت قلي الطعام، وحروق النار (Flame Burn)، والحروق الكهربائية التي تنتج عن التعرض للطاقة ذات الجهد المرتفع، والحروق الكيميائية التي تسببها بعض الأحماض أو المواد القاعدية.

ويتم تصنيف الحروق أيًا كان سببها، اعتمادًا على سماكة الجزء المحروق من الجلد، ومدى تأثير طبقاته (البشرة والأدمة)، وهنا تظهر لدينا العديد من درجات الإصابة:

١- حروق سطحية: تصيب طبقة البشرة فقط، وتتماثل للشفاء بسرعة في حال تقديم العلاج المناسب، وتعرف علميًا بحروق الدرجة الأولى.

٢- حروق عميقة: ويتخطى تأثيرها طبقة البشرة ليصل إلى طبقة الأدمة، وهي ذات خطورة أكبر من سابقتها، وفيها قد يتأثر جزء صغير فقط من الأدمة، وهنا يكتسب الحرق صفة الدرجة الثانية.

٣- حروق أخرى أشد عمقًا: تتأثر طبقتا الجلد بالكامل (البشرة والأدمة)، ويُعرف الحرق حينها بحرق الدرجة الثالثة، وقد تصل الإصابة إلى ما دون الأدمة من الأنسجة كالعضلات أو العظام، وهي أخطر الإصابات على الإطلاق، وتعرف بحروق الدرجة الرابعة.

وقفه مع حال أهل النار في الآية الكريمة

إنه لمشهد عظيم ذاك الذي تصوره الآية الكريمة، وهو يبدأ ولا يكاد ينتهي، ويشخص له الفكر والخيال، وقد أبدع السياق في رسمه بصورة دقيقة.

تحدثت هذه الآية عن الحال التي سيؤول إليها أهل النار

ممن كفر بآيات الله، وقد ورد في النص قول الحق: ﴿سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ﴾، وكلمة "سوف" تعني حدوث فعل في المستقبل، مؤكدة محتتم لا بد منه ولا مفر ولا ملجأ ولا منجى، فالحادثة لا شك واقعة، وسيستحق الوعد والوعيد، وسوف يصلى الكافرون نار جهنم لا محالة.

وأصل الصلّي في اللغة: الإيقاد بالنار والابتلاء بها، وصليتُ الشاة: أي شويتها. قال الخليل: صلي الكافر النار: أي قاسى حرّها، وقال الطبري: سوف يُضججون في نار يُصلون فيها، أي يُشؤون فيها، وفسر الحافظ ابن كثير الصلي بالنار بدخولها دخولاً كاملاً يحيط بجميع أجرام الكافر وأجزائه، فهي عن يمينه وشماله، ومن فوقه وتحتة، وأمامه وخلفه، فلا يكاد يرى لها بُدًّا، ولا منها مهرب أو مفر.

ثم وردت في الآية الكريمة كلمة "كلمًا"، وهي لفظ يدل على استمرار حدوث الفعل، وتكرار المعنى في دورة لا انتهاء لها... وتدل أيضًا على عدم توقف الحدث عند حد معين، بمعنى أن فعل الصلّي بالنار والاحتراق بها مستمر دائم، وتأثير النار لا ينقطع عن الجلد، والعقوبة مستمرة والنكال لا ينفك، ويحتاج لفظ "كلمًا" كما يقول أهل اللغة، إلى جملتين تترتب إحداهما على الأخرى، وفي مثالنا هنا نرى جليًا، أنه كلما نضج الجلد السابق بُدّل جلدًا آخر غير محترق، فترتب تبديل الجلود على نضجها.

وهكذا يستمر شريط طويل وحلقات متعاقبة من عملية الاحتراق، التي يتلوها نضج وتبديل دون أن يقف مسرح الأحداث هذا عند مرحلة معينة أو زمن ما، فتغدو العملية إذن، ذات بداية لا نهاية لها.

ثم تأتي الكلمة التالية في سياق الآية الكريمة، وهي "نضجت"، ويورد ابن منظور في لسان العرب مادة "نضج"، وعنها يقول: نضج اللحمُ شواءً، إذا أدرك شيبه.

وعلى كل حال، فالمعنى ظاهر بين لا غبار عليه، واللفظ جاء عنيقًا مُفزعًا، فهو صورة للحالة التي يكون عليها الجلد المحروق، بعد فترة من بداية احتراقه إلى أن يبلغ نهاية عملية الشوي. فمن المعروف أن عملية النضج لا تحدث بسرعة، بل يسبقها مرور وقت ليس بالقصير، من التعرض المستمر والمباشر إلى ألسنة النار.

وبالطبع فإن عذابًا كهذا لا يقف خلال عملية الشواء، بل إن الألم يبدأ من لحظة تلامس النار مع الجلد ويستمر دون كلل أو ملل... ويزيد هذا الألم تدريجيًا ليتدرج الحرق بدءًا من الدرجة



الأولى، مروراً بالثانية والثالثة... وهكذا تستمر عملية الحرق، وتتخرب خلايا الجلد وأنسجته تدريجياً، ويفقد الجلد قوامه وتماسكه، ويزول بريقه ولمعانه، وتضيع معالمه التشريحية، إلى أن يصل الأمر بالجلد إلى مرحلة الشواء التام والنضج... وهنا يكون الجلد قد تساقطت خلاياه، وأخذت أنسجته تتآكل تحت التأثير المستمر لفعل النار المحرقة، حتى تذوب تماماً، ولم يبق في الجلد بعد الآن رمق من حياة أو إحساس. تتوالى أحداث قصتنا هذه تباعاً ويعقب ذلك مرحلة جديدة، وهي خطوة عجيبة خارقة للطبيعة، تحدث بقدرة الله وإرادته التي لا يقف أمامها شيء، فيأتي الأمر الإلهي هنا بتبديل جلود أهل النار.

ويختتم الله تعالى قوله الكريم، مصوراً ذلك المشهد الرهيب بجملة شرطية: ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾، وهي تعليل لقوله تعالى ﴿بَدَّلْنَاهُمْ﴾. وهنا يظهر إعجاز بياني جديد؛ فقد ثبت علمياً أن جلد الإنسان الطبيعي يضم في سطحه الكثير من نهايات الأعصاب الحسية، وهي نقاط الحس التي يبدأ منها صدور الشعور، فتترجم شعور الجسم بالألم والحرارة، لأن تعرض هذه الأعصاب الجلدية إلى مصدر الألم أو الحرارة، يؤدي إلى إرسال إشارات سريعة إلى الألياف العصبية وصولاً إلى الدماغ والجهاز العصبي في جسم الإنسان، وهناك يتم إدراكها واستبانة دلائلها، مما يعطي شعور النفس بالألم والإحساس به، وذلك بحسب عادة خلق الله تعالى وفطرته التي فطر الناس عليها.

وهنا يتبادر إلى الأذهان سؤال: لماذا ورد اللفظ القرآني هنا "بدّلناهم"، ولم يقل "أبدلناهم"؟ وهل هناك من فارق في المعنى والمضمون بين اللفظين؟

وفي حال إصابة الأعصاب بمرض ما، أو اضطراب وظيفي كما في حال احتراق أعصاب الجلد، فإن هذه الوظيفة تتعطل، فيتوقف ساعي البريد الذي يحمل الرسائل، وتقطع وسيلة الاتصال بين الجلد والجهاز العصبي، ويُفقد حينها الشعور بالألم تدريجياً إلى أن يختفي تماماً. إذن، فلولا عملية تبديل الجلد، التي سيخضع لها معذبو أهل النار، ولولا الأعصاب الجديدة التي ستظهر، لفقد أهل النار الشعور بالألم حينما تنضج جلودهم أول مرة، ولغدت عملية التعذيب قصيرة وذات نهاية ستأتي وإن طال انتظارها، إلا أن قدرة الله تعالى وإرادته، أبت إلا أن يتبدل الجلد بجلد

في الحقيقة، إن هناك بوناً شاسعاً بين الكلمتين "بدّلناهم" و"أبدلناهم"، وتعليق أهل اللغة في هذا الموضوع، يضيف إلى قائمتنا لوناً بيانياً وضرباً إعجازياً جديدين... فالتبديل -وهو مصدر "بدّلناهم" الواردة في الآية- جعل نفس الشيء مكان شيء آخر، ومنه تغيير الصورة إلى صورة أخرى مع بقاء الجوهره بعينها.

أما الإبدال فهو مصدر للفعل "أبدلناهم"، ولم يرد في آيتنا تلك، فهو تنحية للجوهر، واستثاف جوهر آخر مختلف تماماً، أي وضع شيء مختلف تماماً مكان شيء آخر.

وما يخصنا هنا، هو العملية العجيبة التي يحدث فيها أن تتكاثر خلايا الجلد وأنسجته من جديد، مما يؤدي إلى ظهور جلد آخر غير الذي سبق له أن احترق حتى نضج... إلا أن الجلد الجديد هذا، شبيهه بسابقه، مكتمل التركيب، تام

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

غيره يرجع كنهظيره السابق، بغية أن يدوم على أهل النار تذوقهم للمزيد من الأذى والعذاب اللذين لا يقفان لحظة واحدة ولا ينقطعان.

ويظهر لدينا الآن سؤال جديد: لماذا قال تعالى: ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾؟ وعلى من يعود الضمير هنا؟ نجيب عن ذلك فنقول: إن الهدف المقصود هنا من عملية التعذيب بالنار، هو تعذيب النفس والبدن وإيلام روح صاحب الجسد، وليس المطلوب هو تعذيب الجلد نفسه. ولو أريد تعذيب الجلد ذاتها لقليل "ليذقن العذاب". وفي ذلك ورد عن الزمخشري في الكشاف: "فإن قيل كيف تُعذب مكان الجلد جلوداً لم تعص الله؟ قلت: العذاب موجه للجمله الحساسة وهي التي عصت لا الجلد، وهذا يعني أن طاقة العذاب ومطابقه موجهة نحو صاحب الجلد ونفسه التي يحملها بين جنباته".

وثمة سؤال آخر يثيره هنا أهل اللغة: لماذا جاء النص ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ وليس "ليذوقوا العذاب"؟ وهل من فرق بين الذوق والتذوق؟

نعم، هناك فرق كبير بين اللفظين، واختيار الذوق جاء في مكانه الدقيق، مصوراً للحالة التي سيكون عليها العذاب في النار. وعن ذلك يفصل أهل اللغة الكلام، فذاق الطعام؛ أي خبر طعمه، بينما تذوقه تعني شعر بطعمه شيئاً بعد شيء. وإن أردنا قياس ذلك على موضوعنا في ظل الآية الكريمة، نرى أن أهل النار سيدوقون عذابها، وهذا يعني أن شعورهم بمذاق العذاب لا يقف برهة ولا ينفك... فطعمه إذن دائم مستمر متواصل، ولو قيل إنهم سيتذوقون العذاب، لكان حينها طعم العذاب متدرجاً، وقد تتخلله فترات من الراحة والهدوء، وهذا ما نفته الآية الكريمة نفيًا قاطعاً حين اختارت أسلوب ذوق العذاب.

ختاماً، فإن الآيات التي تناقش مثل هذه الحقائق العلمية المثبتة كثيرة، ولم يحدث أن أثبت العلم خلاف ما أقره القرآن الكريم في خبر من تلكم الأخبار، بل جاء العلم الحديث شاهداً على صدق الرواية القرآنية، ليرشد كل ذي عقل وحكمة على أن هذا الكلام إنما هو من عند الله، ولو أنه كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً. ■

(*) اختصاصي جراحة التجميل بالمدينة المنورة / المملكة العربية السعودية.

ماء الحياة

صَحَارَى أرواحنا،

لهبٌ أكبادنا،

جمراتٌ قلوبنا...

هيا يا رجال!

افتحوا الأقفال،

وجودوا بالرواء،

واجعلوا السدود بالمياه تتفجّر،

وتطفح وتندفق،

والصحارى تسقي،

واللهب تطفى،

والجمرات في القلب تُبرّد...

* * *

كما تغار على عرضك كذلك ينبغي أن تغار على سرِّك، فالمستهين بالسر كالمستهين بالعرض، وكما للعرض حرمة فللسر حرمة، فإفشاؤك للسر عارٌ يلحق بك حتى الموت، كالعار الذي يلحق بمن يفرط بعرضه.

(الموازن)

* * *

بحثاً عن "العمارة الهوية"

الزخرفية على بناء حديث مستوح من العمارة الحديثة. بيد أن المعمار الكبير "حسن فتحي"^(١) دعا منذ الستينات، إلى الاتجاه نحو العمارة الهوية من حيث هي كتل وفراغ بدءاً بالعمارة الريفية التي ينشئها الفلاحون الفقراء. والتصميم المعماري ليس هو العمارة الداخلية، ولكن الفعاليين تتفاوتان وتتناحلان لإنشاء العمارة، سواء كانت عمارة بورجوازية مدنية أو كانت ريفية.

والسؤال الثاني يتعلق بمفهوم الهوية المعمارية وعلاقتها بالأساليب والطراز؛ فكيف تحافظ الهوية على وحدتها في نطاق أشكال مختلفة باختلاف المكان والزمان، وباختلاف

هل هوية العمارة الإسلامية، تبدو في قوام العمارة بوصفها سطوح وفراغات وخطوط وانحناءات وشراشيف وأدراج وأعمدة، أم في الزخارف اللاصقة على جدرانها وواجهاتها مما نراه -مثلاً- في قصور غرناطة؟ لقد اتجه أكثر المعماريين -وهذا ما لاحظته بحق الباحث عفيف البهنسي^(٢)- نحو الظاهر الزخرفي، فرأوا العمارة العربية من خلال الزخارف المتمثلة بالرقش والفسيفساء والمقرنصات والأفاريز والخطوط الجميلة... وكثيرة جداً هي المنشآت الحديثة التي ادعت الأصالة بإضافة هذه العناصر

هـ

ويسهل الجواب على هذا السؤال إذا اعتبرنا العمارة لغة مجسدة تحمل دلالات روحية ومادية، وتقوم بوظيفة إنسانية اجتماعية بأساليب مختلفة، شأنها في ذلك شأن اللغة التي تحمل دلالات مماثلة، وتقوم بوظيفة إنسانية حضارية.

هوية العمارة هي هوية الأمة

تتجلى هوية الأمة، من خلال وحدة اللغة والثقافة والعقائد، وتعكس هويتها على العمارة والفنون والتراث. وتستمر هوية العمارة باستمرار هوية الأمة، وتتطور بتطورها، وتنهض بنهوضها، وتفكك بتفككها. ولذلك فإن البحث عن هوية العمارة هو بحث عن هوية الأمة، وبالمقابل فإن فن العمارة يكشف عن هوية الأمة التي أفرزت هذا الفن أو ذاك.

ولأن هوية الأمة لا تتمثل بفصائل الدم بل بمعطيات الحضارة، فإن قراءة تاريخ العمارة يجب أن يبدأ بقراءة تاريخ حضارة الأمة، لأن بناء العمارة هو جزء من كيان الأمة. وبهذا المعنى فإن هوية العمارة تعني انتماء هذه العمارة إلى حضارة معينة خلفتها أمة معينة.

ومن هنا يؤكد الباحث عفيف البهنسي على الاعتراف؛ أن قطيعة طويلة الأمد حدثت بين ثقافتنا وبين تاريخنا الحضاري، أورثت جهلاً بالتراث ورفضاً له، وحققت فرصاً لتسرب الثقافات الوافدة والدخيلة التي غيرت شكل الثقافة الحديثة وعبثت بجوهرها، وهكذا أصبحت عمارتنا غريبة عنا، وأصبحنا غرباء في مدننا التي تجردت عن هويتها الأصلية، وأصبحنا في بيئة هجينة غيرت من عاداتنا ومن أذواقنا وثقافتنا.

ويتساءل الباحث؛ إذا كان التاريخ صيرورة، وإذا كان لا بد لكل قديم حديث، وإذا كان العصر الذي نعيش أكثر انفتاحاً على ثقافات العالم، وأصبحت التقنيات الحديثة وأساليب الفن والعمارة جزءاً من عولمة الثقافة، فكيف نستطيع تحقيق انتماء حضاري قومي في العمارة الحديثة؟

الهوية بين الأصالة والمعاصرة

إن عاملاً مشتركاً بين الأصالة والمعاصرة في العمارة خاصة، هو المقياس الإنساني. فإذا استطاعت المعاصرة -كما الأصالة- أن تحافظ على هذا المقياس، فإن التأخي بينهما يصبح ممكناً، ويتجلى المقياس الإنساني في تمثل القيم الروحية والقومية

والمادية في العمارة المعاصرة. فالمعاصرة ليست انتهاكاً للهوية، وإلا فإن التعددية التي هي طابع الإبداع، تنسحب من كيان العمارة العالمية لتصبح عمارة واحدة تمثل إقليمياً دولياً واحداً. إذن، بتعدد الهويات المعمارية نستطيع الحديث عن عمارة عالمية، أما فرض هوية محددة على عمارات العالم، فإنه ينفي العالمية ويبقي على عمارة واحدة مهيمنة عالمياً. إن المسلمين تمكنوا في فن العمارة، الذي غطى مجالاً جغرافياً واسعاً امتد من إسبانيا (الأندلس) إلى بلاد البنغال، والذي غطى مجالاً تاريخياً بدأ في نهاية القرن السابع للميلاد حتى أوائل القرن التاسع عشر، أصبح مدرسة عالمية في البناء تتضمن مدارس وطرز فرعية كثيرة يتوفر على دراستها كثير من الباحثين في الشرق والغرب على السواء.

وقد أصبحت هناك حقب معمارية تاريخية وفنية؛ مثل العمارة الأموية، والعمارة العباسية، والعمارة المغربية، والعمارة الأندلسية، والعمارة العثمانية... تحمل كل منها بصمات خاصة بتلك الحقب التاريخية التي استغرقتها، وتحمل طابع المكان والظروف الجغرافية والثقافية التي سادت فيها. ومن هنا لا يكون غريباً أن نجد كثيراً من الطرز لمختلف العماثر الإسلامية -سواء كانت مساجد أو قلاع أو قصور أو مدن إسلامية كاملة- تعبر عن خصائص فنية وجمالية وتاريخية، مثل الطراز الأموي، أو العباسي، أو الفاطمي، أو السلجوقي، أو المملوكي، أو المغربي الأندلسي، أو التركي العثماني.

الفن الإسلامي الموحد في روحه

هذا الانتشار الواسع لرقعة الفن الإسلامي في كل بقاع العالم الإسلامي، وكما تبدى في العمارة الإسلامية الضخمة لأول وهلة، لأكبر دليل على عبقرية الإنسان المسلم وسمو روحه (العبقرية والسمو اللتان استمدهما من روح الإسلام)، فسرت في كل إنشاءاته وصبغت كل أعماله. كان في أول نشأته يركز على العناصر المعمارية والزخرفية التي تنفق وروحانيته، فخرجت منجزاته تكاد تشبه بعضها بعضاً في سائر البلاد الإسلامية، مع شيء من التباين اليسير الذي تحمله كل بيئة، وتختص به مواهب أهلها الموروثة إنشاء وعمارة وزخرفة وخبرة وتقاليد.

وعلى الرغم من تأثر هذا الفن بفنون البلاد التي فتحتها المسلمون وخاصة الساساني منها والبيزنطي، فإنه قد استبعد منها الجوانب الأسطورية وفنون المحاكاة الشكلية أو



حيث يجعل من الكعبة الأصل الذي انبنت عليه كل تقاليد العمارة في الإسلام. فالكعبة من حيث الشكل والصفات هي النموذج الأول للفن الإسلامي، إذ تعبر عن خميرة هذا الفن على مستويات الرمز الداخلي والشعائري والوثيقة الصلة بالشكل. فهي حلقة الاتصال بالنسبة للديانات السماوية الأخرى، التي تنبثق منها كما تنبثق الفروع من أصل الشجرة. وعن طريق الكعبة -بصفتها النقطة التي يتجه إليها المؤمنون في الصلاة، والمركز الذي يرمز إلى اتحاد الإرادة الإنسانية والكونية، والقلب الذي يعبر عن الوعي بالوحدانية الربانية- يربط المؤلف بأستاذية فذة بين كل مساجد الإسلام والكعبة، ويجعل العمارة الإسلامية في كل أنحاء العالم وكأنها بناء واحد، وإن لم يكن إدراك وحدته الكلية على مستوى المنظور فإنها تكون ممكنة على المستوى الروحي، أي من منظور التأمل العقلاني الصحيح.

فالجامع ليس فيه مركز مقدس كالكنيسة والمعبد، وذلك أن المحراب يقتصر دوره على تحديد اتجاه القبلة، والساحة في المسجد تحيط بالحرم المكي. وهكذا تحولت بعض كنائس الشام إلى مساجد، جعل امتدادها الطولي عرضاً في اتجاه القبلة، وبذلك أصبحت أعمدة الأروقة تعطي شعوراً

الخاصة، ثم عالج فنونها التجريدية بما يتفق مع تعاليم الدين الإسلامي وروحه وفلسفته، وطبيعة الرقعة العربية. وبهذا تميز الفن الإسلامي بقسماته عن الفنون التي تأثر بها وعن باقي الفنون الدينية.

إن المسلمين في عصور انتشارهم، استنبطوا نظاماً معمارياً متكاملًا؛ من التشكيلات والتراكيب المعمارية والزخرفية التي تكون في مجموعها الطراز الإسلامي الموحد في روحه وطابعه. فجاءت تلك العمارة الإسلامية تعبيراً جمالياً لدى الإنسان من رؤية فريدة و متميزة تجاه الواقع والمساحة والزمن والتاريخ، بل والأمة نفسها، وأيضاً نحو ارتباطه العضوي بكل هذه العوامل.

مستشرقون منصفون

من هنا لا نعدم أن نجد مستشرقاً منصفاً مثل "جاستون فييت" يقول: "إذا كان معيار الأصالة في أي طراز من طرز المعمار هو أسلوب الفراغ، فإن تصميم الجامع هو النموذج الذي يعبر بوضوح عن جوهر عقيدة الإسلام، بصفته ديناً أصيلاً له شخصيته المتميزة".

وكذلك نجد المستشرق "بوركهارت" الذي يحدثنا عن الرمزية في العمارة الإسلامية في مؤلفه عن "الفن الإسلامي"،

بالراحة، وهو ما يتفق مع فكرة السكون وليس الحركة. وهي حالة التوازن التي تعبر عنها العمارة الإسلامية في كل أشكالها، بسبب اتجاهها نحو المركز الأرضي، وهذا ما يظهر في جامع دمشق بشكل جلي.^(٧)

وجدير بالذكر أن مطالع القرن التاسع عشر الميلادي، قد شهدت يقظة الأوساط الأوروبية إلى أهمية الآثار الفنية الإسلامية، ولا سيما الآثار المعمارية. وكانت إسبانيا أول البلاد التي أثارت هذه اليقظة، فأدى ذلك إلى إنتاج مؤلفات ضخمة في مجلدات كثيرة. وأول رائد في هذا الميدان "جيمس

كافانا ميرفي" بكتابه الذي عنوانه بـ"الآثار الإسلامية في إسبانيا"، وهو كتاب يتميز حماسة لكل شيء إسلامي، لا بتصويراته الجميلة للمباني الإسلامية وزخارفها وكتابتها فحسب، بل بعنايته بصفحة العنوان، حيث سجل المؤلف السنة الهجرية (١٢٢٨هـ) إلى جانب السنة الميلادية (١٨١٣م) التي تم فيها طبع الكتاب، ثم أتى من بعده كثير من الإسبان، مثل "دولابورد" و"جيرو دابرنجي" و"جول جوري" و"أوين جونس" وغيرهم... وحوالي ذلك الوقت، كانت فئة أخرى من المؤلفين الذين امتدت بحوثهم إلى الآثار الإسلامية بجزيرة صقلية، وذلك عن طريق بحوثهم في الآثار الصقلية عامة. ويرجع المستشرق "إنتجهاوزن"^(٨) السبب الذي أثار هذا الاهتمام الجديد بالآثار الإسلامية إلى الحركة الرومانتيكية (أي الابتداعية) بما أثارته من الاهتمام بمعرفة المدن السابقة البعيدة عن زمنها ومحيطها.

يقظة أوروبا إلى فنون الشرق

ثمة دافع آخر ليقظة الأوساط العلمية الأوروبية إلى دراسة الشرق وفنونه وآثاره، وهو دافع التوسع الاستعماري والسياسة العسكرية في العصور الحديثة. تجلى هذا واضحاً في إحصار نابليون -في حملته على مصر- جماعة من العلماء، لبحث شؤون البلاد المصرية بحثاً شاملاً. إذ أعد أولئك العلماء رسومات تخطيطية للمدن والمباني والعناصر الأثرية، ورسوموا مناظر معمارية للشوارع والحارات والمساجد والنقوش

تتجلى هوية الأمة من خلال وحدة اللغة والثقافة والعقائد، وتعكس هويتها على العمارة والفنون والتراث. وتستمر هوية العمارة باستمرار هوية الأمة، وتتطور بتطورها، وتنهض بنهوضها، وتتفكك بتفككها. لذلك فإن البحث عن هوية العمارة هو بحث عن هوية الأمة.

والنقود، ولم ينسوا أن يعملوا صوراً توضيحية لأنواع الصناعات القائمة بمصر وقتذاك.

ونتج عن هذه الأبحاث كتاب وصف مصر في تسع مجلدات، وعشر أخرى للرسوم والصور التوضيحية، وأطلس للخرائط الجغرافية، وهذا الكتاب في مجموعته هو القاعدة الحقيقية والمنبع الحقيقي لمعرفة الآثار الإسلامية. وفي أواسط القرن التاسع عشر الميلادي، ظهرت دراسات تفصيلية في العمائر والمخلفات الإسلامية التي كشفت عنها جهود القوامين على

الآثار الإسلامية، وهي دراسات قام على معظمها مهندسون ومعماريون ورسامون، مثل جهود "باسكال كوست" في كتابه "الهندسة المعمارية الإسلامية"، وأعقب كوست كتابه هذا، بسلسلة من الدراسات في الهندسة المعمارية الإيرانية، بالاشتراك مع المصور "فلاندان".

ثم امتدت هذه الجهود إلى الآثار الإسلامية في مصر في مؤلفات "بورجون" (١٨٧٣-١٨٩٢)، وكذلك "يريس دافن" (١٨٧٧)، وهي مؤلفات لا تقتصر على العمارة فحسب، بل تشمل مختلف الفنون الصغرى، فضلاً عن دراسة تفصيلية دقيقة للأشكال الهندسية في الزخرفة المعمارية. ولا تزال الدراسات قائمة تحاول التعمق في فهم آثار العمائر الإسلامية وفلسفة بنائها، سواء من قبل المستشرقين أو من قبل علماء وفناني العالم الإسلامي. ■

^(٧) رئيس قسم الفلسفة والاجتماع، كلية التربية، جامعة عين شمس / مصر.

الهوامش

^(١) ما بعد الحداثة والتراث في العمارة العربية الإسلامية عالم الفكر، للدكتور عفيف البهنسي، ج: ٢٧، العدد: ٢، أكتوبر ١٩٩٨.

^(٢) انظر إلى الكتاب الذي صدر في لندن بعنوان "Hassan Fathy"، كتبه Richards, J. M., Ismail Serageldin, Darl Rastorfer.

^(٣) الفن الإسلامي، لبوركهارت.

^(٤) الفنون والآثار الإسلامية، لـ"إنتجهاوزن"، ترجمة محمد مصطفى زيادة، ص: ٧٤-٧٥، الأنجلو المصرية، عام ١٩٥٣م.

الاستيعابية الفكرية للكينونة البشرية في رسائل النور

فسنرى الانتظام حتى في غير المنتظم - كما يقول - وبعض الخير في تلافيف كل شر، وبعض الحق في ثنايا كل باطل، وإشارات قوة في جوانب كل ضعف وضعيف، وبصيص نور في أطباق الظلام، وحتى تلك المذاهب الدينية المشتتة في ابتعادها عن سواء الدين، لا تخلو هي الأخرى من جزء أو أجزاء من الحق، وبهذا الجزء أو الأجزاء يشيع المذهب ويلقى القبول لدى بعض الناس.

وإنه كثيرًا ما يلفت انتباهنا إلى المعجز الخارق في إعجازيته في البديهي الغارق في بدايته، وإلى غير العادي

بين رجال الفكر الديني المعاصر، يبقى "النورسي" من أكثرهم شدًا للانتباه بفكره الاستيعابي والاستقصائي للكينونة البشرية بأبعادها المختلفة، واستشرافاتها على العوالم الوراثة و"الماورائية" على حد سواء. فقد بلغ نزوعه الاستيعابي من العمق والسعة، إلى الحد الذي لم يعد يجد معه في التناقضات والأضداد في الفكر والحياة، معضلة تواجه الفكر الإيماني لدى المؤمنين. فما من سلب - كما يرى - إلا وينطوي على شيء من الإيجاب. فإذا ما تعودنا النظر بعمق في الأشياء،

ب

في العادي نفسه، وغير المؤلف في عين المؤلف... ففكره نزاع إلى التجرد من خارجية الأشياء، وإلى انتزاع قشرة البدهة عن البدهات، واستكناه الكينونة البشرية مجردة من الفضوليات العالقة بها والدخول إليها من أبوابها المشرعة الفكرية والوجدانية والحدسية، وحتى الخيالية وكل لطائفها الأخرى. ففكره استيعابي استقصائي، يستوعب النفس البشرية ويستقصي كل جوانبها مشيداً صروحه التخاطبية معها في رسائله على أسس من مصداقية المعرفة بحاجات جوانب هذه النفس، وإعطاء كل ذي حاجة منها حاجته التي يريد.

الكينونة البشرية إذا ما تضامّت على نفسها، وجمّعت أجزاءها ووازنت بين متطلبات كل جزء منها، صارت وحدة واحدة، وغدت جزءاً مماثلاً للتوازن الكامن في الوجود، ووجدت مكانها في الإيقاع السرمدى بين الطاقة المنطلقة من روح العالم، والطاقة المنطلقة من روح الإنسان، فتتحول عندئذ ذات الإنسان إلى عالم من الإشعاع، يضيء كل جانب معتم من الفكر والحياة.

هذه الكينونة من صراعات مأساوية بين القيومية الروحية وغيرها من القيومات. فالكينونة البشرية إذا ما تضامّت على نفسها، وجمّعت أجزاءها ووازنت بين متطلبات كل جزء منها، صارت وحدة واحدة، وغدت جزءاً مماثلاً للتوازن الكامن في الوجود، ووجدت مكانها في الإيقاع السرمدى بين الطاقة المنطلقة من روح العالم، والطاقة المنطلقة من روح الإنسان، فتتحول عندئذ ذات الإنسان إلى عالم من الإشعاع، يضيء كل جانب معتم من الفكر والحياة.

ففي مقدمة كتاب "المثنوي العربي النوري" يلمح "النورسي" إلى أسس فهمه لعالم الإنسان الداخلي، من حيث كونه مزيجاً من العقل المفكر والروح الباعث للحياة في موات الأفكار. فما من إبداع إنساني إلا وهو نتاج توافقي بين العقل والروح، فالروح هي محارِب العقول تتطهر فيها وتتصفى، ثم تتسامى إلى جوهر الأشياء وحقائق المعاني ولباب الأفكار. وبهذا الفهم استطاع أن يحيط بالأبعاد الإيمانية التي أشار إليها القرآن وسعى لتربية العقول والأفهام بمضامينها.

لقد رأى "النورسي" أن من واجبه الديني أن يعرف الإنسان بنفسه كما هي، وألا يحجب عنه هذه المعرفة ليكون مؤهلاً لقبول حياة "ما فوق الحواس" التي يراد للمؤمن أن يتأهل لقبولها. وقد سعى جهده لنقله من الحالة الذهنية النمطية إلى ذهنية منبثقة من رؤى روحية عميقة الإدراك واسعة الآفاق، ليحرب أشكالاً جديدة من الوجود لم يسبق أن تعرف عليها من قبل.

ولا نكون مغالين إذا قلنا: إن "النورسي" أوشك أن يصل إلى نهاية الإصلاح في الحياة العقلية والروحية للإنسان المسلم، وذلك بإنقاذه من الانكسارات النفسية التي خلفها فيه تضاعف شعوره بالانهزام الحضاري أمام تحديات العصر الحافل بكم هائل من الإنجازات في شتى العلوم والفنون، حتى خشى أن يكون العالم اليوم غير قادر على استيعاب متطلبات المسلم الروحية، واستساغة أشواقه "الماورائية"،

فرسائل النور هي نتاج هذه المعرفة بالكينونة البشرية، حيث جعلت من أعظم أهدافها تحرير هذه الكينونة من الأثقال التي تشدها إلى الأرض، وتحصينها من جواذب الشتات في شعاب العالم واستنهاض جميع قواها ولطائفها، ثم تكريسها لخدمة الهدف الأكبر الذي خلق الإنسان من أجله وهو العبودية الخالصة لله تعالى. فإذا ما مات صاحب هذه الكينونة ماتت كينونته كلها معه ولم يبق منها شيء خارجاً عنها متعلقاً بسبب من أسباب الدنيا كما ورد في الأثر: فقد أثنى جملة من الصحابة رضي الله عنهم - في حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم - على رجل من الصحابة كان قد مات، فقال عليه الصلاة والسلام: "رحم الله فلاناً فقد مات كله"، فقال الصحابة: يا رسول الله أليس أحدنا إذا مات يموت كله؟! قال عليه الصلاة والسلام: "ليس كلكم إذا مات يموت كله". أي - والله أعلم - أنه ليس كل أحد يموت بكينونته كلها دون أن يتبقى منها شيء خارج هذه الكينونة في مكان ما من الدنيا. ومصداق ذلك قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿قُلْ إِنْ صَلَّاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: ١٦٢).

فنسيان الطبيعة الروحية للكينونة البشرية عند بعض المفكرين إنما هو عسر عقلي يحول بينهم وبين التفكير الصحيح، فينتابهم عندئذ شعور بحراجة الحياة الإنسانية وامتلائها بالمخاطر، التي قد تودي بعضهم إلى الانتحار العقلي قبل أن يسعفهم الحظ ليروا ما يجري في أعماق



لكونه محاصرًا من قبل حشود هائلة من ماديّات الأرض... فهو اليوم عائم في بحران من الرعب الكابوسي الذي يضيق عليه الخناق، ويشده أكثر فأكثر نحو المركز الميداني التعبوي لجنود الأرض، الذين لا يزالون يدقون الأسافين بين الإنسان وربه... فبات يحيا دون انتماء جاد إلى عالمه الذي يعيشه، أو العالم الآخر الذي يُدْفَعُ إليه دون رغبة منه. فالأعمال التي ينجزها، ينجزها كما تنجز الآلة الخرساء الصماء أعمالها بحرفية مهنية من وراء ذهن متعب كليل وقلب هزيل فاتر، حتى لنكاد نقطع بغياب الروح الخلاق فيما يأتيه من أفعال، ولو لم يكن شيء

ما يعمل عمل الروح في استنهاض قواه الفكرية، لعقم ولم يأت بشيء جديد على هذه الأرض.

إن إطلاق الكينونة البشرية من قيود مراسيم النمطيات الفكرية والنفسيه المدونة في دفاتر العالم، باعتبارها الهوية التي يُرْجَعُ إليها عندما يراد تعريف الإنسان وكتابة الوصفة الدوائية لأمرضه المستصية أقول: إن إنقاذ هذه الكينونة من النظرة الضيقة التي يُنْظَرُ إلى الإنسان من خلالها، عمل من أجل أعمال الدراسات الفكرية الاستيعابية والاستقصائية لرسائل النور. فقد أُنذرت هذه الرسائل ونُبّهت إلى ضرورة إجراء تغييرات مهمة وجريئة في المفاهيم والمقررات المتعلقة بالخارطة الوجدانية والفكرية للإنسان، وذلك بإعادة التوازن الحميمي بين عوالم الإنسان في مختلف لطائفه ونزوعاته في الداخل والخارج، وإعادة الاهتمام بالكل الإنساني الكلي وعدم الاقتصار على الجزء الجزئي منها كما يعبر النورسي. فرسائل النور إنما هي قوة من قوى الفكر الواعي، وقوة من قوى الإدراك الروحي العالي، وهي نجوم تتألق في سماء ملكوت عقل الإنسان وروحه، مثيرة بذلك الشوق والتوق إلى جمالية الحقائق، وشاعرية الوجود، وشفافية الأشياء، وروحانية المكان والزمان، وعلو الإنسان واستشرفاته على جلال الأزَل والأبد.

وأكثر إيجازًا وتلخيصًا فهي -أي رسائل النور- طريق معبدة لمن يسعى إلى مسايرة الفكر في تفجراته الذهنية، ومسايرة "الروح" في وثباته اللانهائية، وهي مرجع واسع وخصب للنفس الإنسانية عندما ينتابها شعور بالضيق

والانكسار أمام أعاصير الزمن، وطغيان الأحاسيس وضمور المشاعر، كما أنها تشعرك بقداسة الصنعة الإلهية في العوالم والأكوان، وتؤكد على أن الإنسان مخلوق للبقاء لا للزوال والنفناء، وأن الذات الفردية وإن كانت صغيرة في رحاب الوجود، غير أنها تحتوي على عوالم أوسع وأرحب من عوالم الأرض والسماء تحيط بمشياتنا وأفكارنا، وتقودنا إلى مصائرنا إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

إن "الكينونة البشرية" بكافة أبعادها المشحونة بالفكر الروحاني الذي اعتمده "النورسي" في تأليفه لرسائل النور، هذا الفكر مرشح اليوم أكثر من أي فكر آخر لتأصيل "عقيدة الإيمان" والمحافظة على ركائزه في بنية النفس والضمير، وإمداد الذهن بالثقافة الإيمانية التي هي نتاج تجربة ومشاهدة بلغت درجة اليقين الذي لا يقين بعده كما يقول. فهو -أي النورسي- لا يخدعنا، لأنه لم يكتب إلا ما شاهد وجرب... فقد قرأ كتاب الكون والحياة بألسنة الأرض، ولمس السماء، وغاص في فجاج الفكر ودخائل الضمير، فأتى بالذي أتى عفوًا، بلا روية ولا اصطناع.

لقد عاش روح العصر، وأدرك أنه عصر يصدف عن علوم النظر وتأملات العزلة، بل هو عصر يقبل بشدة على علم المزاولة والبناء، إنه جمع كل ما أمده به الحكمة في قلمه ثم نثرها في رسائله، فأشعل النفس، وحمّس الروح، وأثار العاطفة، ووسّع آفاق الخيال، ورسخ معالم العقل القدير، وأمانة الفكر والتفكير. ■

(*) كاتب وأديب عراقي.

ولكن.. كلنا في الهم شوق^١



هـ

هي قصيدة عصماء لأمير الشعراء أحمد شوقي، لكأنه ترنم بها اليوم، بقلب مكلوم محزون على حال عالمنا الإسلامي إجمالاً، وعلى حال دمشق تخصيصاً، معانيها لا تزال متألثة لا تبهت... قال في مطلعها لا فضّ فوه:

سلام من صبا "بردى" أرقُّ** ودمعٌ لا يكفكف يا دمشق
ومعذرة اليراع والقوافي** جلال الرزء عن وصف يدق
نعم، يموت الرجل فيخلد المعنى دفاً... ويفنى الجسم
فيبقى الروح خفاً... أما الكلمة الصادقة التي بُدّرت في تربة
الحق، وأينعت في عالم الخلق... أما هذه الكلمة، فأصدق
وصف لها قول رب البيان، ومعلم القرآن، جل جلاله وتعالى
حكمه: ﴿تَوَاتِي أَكْلَهَا كُلِّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ (إبراهيم: ٢٥)؛ إنها
لطبيها تعانق عالم الملائكة برفق، فتسقي العقول الفطنة كل

آن، وتُحيي القلوب المحبة أنا بعد آن.
ولقد أبدع شاعرنا ثانية حين قال، في ذات القصيدة
الفيحاء، وهو يحرك منا الموجد، ويُلهب فينا الأشواق:
نصحتُ ونحن مختلفون داراً** ولكن، كلنا في الهم شرق
ويجمعنا إذا اختلفت بلادٌ** بيانٌ غيرٌ مختلفٍ ونطقٌ
غير أني أستميح فصيح العرب شوقي عذراً، إذا تجرأت
عليه؛ لا لأخطئه، فذلك مما لا ينبغي لمثلي أن يدعيه على
مثله، لكن لأبشّره أن نصر الله تعالى بدأ حاجبه في الأفق؛^(١)
إنه قاب قوسين أو أدنى، لأجل ذلك تشجعتُ فحوّرت في
رائعته معنيين، وله الفضل سابقاً ولاحقاً:

أولاهما أن دلالة "الهم" قد نمت وتطوّرت، فبعد أن كانت
سلبية قاتمة: سلبيتها من سلبية الفرد المسلم يومئذ، وقاتمها
من قاتمة حال الأمة حينئذ؛ ولقد كنا أوان نسج القصيدة^(٢)

الثغر؛ ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلُّ إِي وَرَبِّي﴾ (يونس: ٥٣)، ﴿إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلَ مَا أَنْكُمْ تَنْطُقُونَ﴾ (الذاريات: ٢٣).

ثانيهما أن الذي جمعنا اليوم ونحن نرفرف في سماء الشرق، هو "الله تعالى" جلَّ شأنه، و"كتابه الكريم" سما بيانه، ثم "رسوله الحليم" شرح الله صدره، ووضع وزره، ورفع ذكره... فلم تجمعنا -إذن- اللغة، ولا النطق، ولا اللسان، ولا العرق... إلا أن يعني الشاعر "بالبیان والنطق غير المختلف" كلام الله المبين، وكتابه المتين؛ فهنا فقط، نواقفه وندهب مذهبه، ونرد على إثره:

"ويجمعنا إذا اختلفت بلادًا*** بيان غير مختلف ونطق".

سمعتُ صوتًا خافتًا، من هنالك، يهمس في أذني قائلاً:
- إن يكن هذا إجمالاً، فأين التفصيل؟ وإن يك اختصاراً،
فأين الإطناب؟ وإن قصدت الإلغاز، فأين مفتاح الشفرة، ورمز
الأحجية؟

قلت: نعم صدقت، لكن رويداً لا تستعجل ولا تختزل،
واسمع قول ربنا العظيم لنبته موسى الكليم: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ
عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى﴾ (طه: ٨٣).

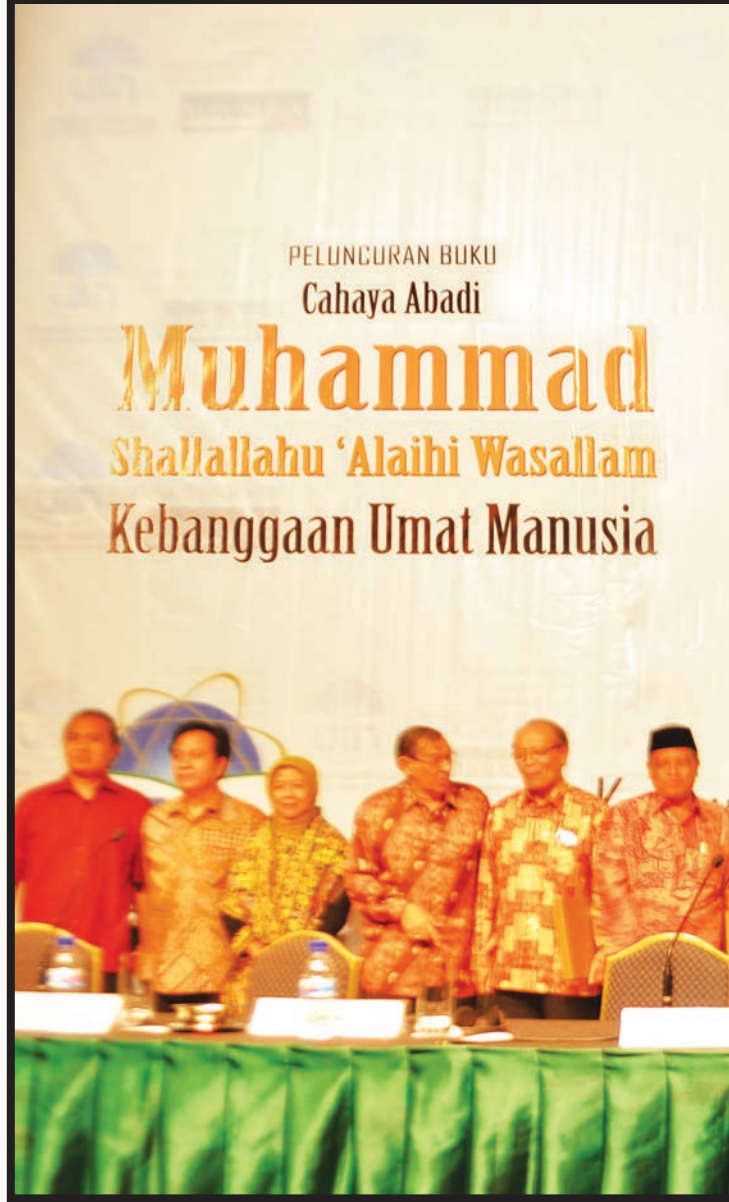
قال الذكي الفطن: لكن يا هذا، تنبه إلى جواب الرسول
المهلم، وقد حماه ربُّه بكرمه ورعاه على عينه وعلمه من
علمه؟

قلت: ماذا تعني؟

قال: ليست كل العجلة ندامةً، وإنما العجلة إذا كانت
ابتغاء رضوان الله، فهي عنده مبررة ومكرمة. ألم تسمع جواب
سيدنا موسى الحكيم: ﴿وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ (طه: ٨٤).
كذلك أنا، عجلت إلى سماع الخبر، ابتغاء لرضا ربي، وأملاً
في فرج يحل عاجلاً على أمتي، وترقباً للفجر الجديد والعهد
الوليد! فهل يقنعك هذا يا هذا؟

قلت: نعم، أصبت... ذلك المبتدأ إليك الخبر، وتلك
المقدمة دونك المتن، وهذا الشاطئ فلنغص في البحر
متوكلين على الله محتسبين:

بيان ذلك أنا سمعنا من أقصى الشرق منادياً ينادي أن
توافدوا لإحياء ذكرى "النور الخالد، مفخرة الإنسانية، محمد
عليه أفضل الصلاة والسلام"... وقد يسر الله تعالى على يد
عبده المنيب^(٤) تأليف هذا السفر الفريد، ولقد ترجم من قبل
إلى خمس وثلاثين لغة، وها اليوم يفتح الله تعالى بترجمته
إلى اللغة الأندونيسية، لغة أكثر البلاد الإسلامية مدداً وعدداً.



نئن تحت كل كل ضعفنا وهواننا، ونرزح تحت نير الاستعمار؛
يذبح أبناءنا، ويستحيي نساءنا... أمّا اليوم فيصدق أن نقول:
إننا "نرى رفرقة خمائل القضية في كل صوب وناحية منذ الآن
بوفاء كوفاء الفجر، وعلى مرغمة كل عائق، وبفضل الذين
حفزوا الخارطة الروحية للوطن بخفقات قلوبهم، ولونوها
وسقوها بدموعهم... ولئن جاز العديد من خداع الفجر
الكاذب، فإن شهادة أصدق الشهود على شروق الشمس قريباً
هو الفجر الصادق في الأفق نفسه"^(٣). ولذا تفتح معنى "الهم"
على عالم أكثر رحابة وإيجابية وسعة، ليعني "التوتر الروحي"
و"الشده المعنوي"، و"الأم من أجل الأمة"... من هنا جاز لنا
أن نعدّل في البيت مُشددين:

"نصحتُ ونحن مختلفون داراً*** ولكن، كلنا في الهم شوق"
إنه لشوق لغدٍ متفتح الأكمام، وإنه لتوق لمستقبل باسم

نعم، من هنالك، في الطرف الشرقي لمحور "طنجة-جاكارتا"، أو إن شئت فقل لخط "مراكش-جاوا"؛^(٥) من هنالك، من جاوا، وجاكارتا، وباندونغ، وسومطرة... جاءت دعوة كريمة، تفضل بها ماجوراً كرسياً "الأستاذ فتح الله كولن" في "الجامعة الإسلامية الوطنية"، فاستجاب ثلثة من المثقفين والمفكرين، من المغرب والمشرق، وأسرؤا ليلاً وجهة آخر نقطة من جغرافية الشرق. فيسر الله لهم أمر السفر، ثم فتح لهم من رحمته، كيف لا وقد استجابوا لأمر ربهم الحكيم: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا﴾ (الأنعام: ١١)، ﴿فَامشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِ﴾ (الملك: ١٥).

وهنالك، في جاكارتا، عاصمة الجزر الأندونيسية، هنالك استقبل الوفد بحفاوة يعجز اللسان عن وصفها؛ بورود في المطار، ثم بإقامة في منزل أنعم به من منزل، وتوالت الزيارات إلى الشخصيات البارزة، والوجوه الطيبة، والعائلات السخية، والمؤسسات البديعة... في هذه البلاد العامرة الطاهرة، التي نزل بها "المهاجرون" من شباب "الخدمة" أوائل التسعينيات من القرن الماضي، فبذروا فيها "المحبة" و"التسامح" ومعنى "أن تعيش للآخرين"، ودفنوا لأجل ذلكم "أنانياتهم" في تراب الخمول، موقنين أن "ما نبئت مما لم يُدفن لا يتم نتاجه".

ولقد قال أحد وجوه البلد في كلمة بديعة قبيل وجبة عشاء دعانا إليها عن طيب خاطر: "إن فتح الله قد أعاد الاعتبار إلى الأخلاق الحميدة، في منظومة الأوامر والقيم الشرعية، هذه الأخلاق التي تشغل جل نصوص الشارع الحكيم، ولكنها -للأسف- تكاد تغيب من واقع المسلمين اليوم"، ثم أردف قائلاً: "لم نعرف الخدمة إلا من خلال أخلاق شبابها، التي تذكّرنا بأخلاق الصحابة، عليهم شآبيب الرحمة، ويليق بنا أن نعترف أن هؤلاء هم الصحابة الجدد، صحابة هذا العصر، بحول الله تعالى، ولا نزكي على الله أحداً".

ويذكر التاريخ أن "أهل حضرموت-اليمن" نشروا الإسلام في هذه الربوع اليافعة، ولا يزال لهم هنا ذكر وأثر ومحمدة، بل وعرق حي نابض، ممن أصله من اليمن السعيد، يمن الحكمة والفخر والبطولة... أما اليوم، فيسجل التاريخ بصوت جهور صادق، أن "أهل الخدمة" أحيوا لحمه الدين من جديد، وأزلوا هواجس الفرقة، وذكروا العالمين أن "الإسلام دين أمن وأمان"، وأن الخير كله في الإقبال عليه، وأن الشر جميعه في الإعراض عنه. ألم يقل المرشد الخريت: "رجاؤنا الوطيد المنتظر أن نشهد قريباً -إن لم نقض عهد الوفاء مع الله تعالى- معاني سورة النصر بعظمتها وهبتها كزة أخرى... وأن ترفرف رايات الإيمان والأمل والأمن فالاطمئنان والحبور، في ظل الإسلام مرة أخرى... وأن تتعرف البشرية في الأرض كلها على نظام عالمي جديد فوق ما تتخيل، وأن يستفيد كل إنسان، بقدر ما تسع فطرته وأفق فكره من تلك النسائم المنعشة".^(٦)

ولقد شهدنا -عياناً و يقيناً- مدارس شامخة عتيده، بلغت الذروة جودة



أ.د. عقيل سراج، رئيس نهضة العلماء/أندونيسيا.



أ.د. نصر الدين عمر، نائب وزير شؤون الأديان/أندونيسيا.



د. فؤاد البنا/اليمن (على اليسار).



د. محمد باباعمي/الجزائر.



نوزاد صواش، المشرف العام على مجلة حراء/تركيا.



د. علي أونسال/تركيا.



الشاعرة حاج نينو واريسمان/أندونيسيا.



د. محمد جكيب/المغرب.



مصطفى أوزجان، مستشار مجلة حراء/تركيا.



وإتقاناً، أغلبها من سحاء أهل البلد الذين آمنوا بدرّب العلم مخرجاً وفرجاً، ثم زرنا دوراً للطلبة وأخرى للطلّبات، مفتوحةً على العالم مبنى، ومتصلة بالسماء معني، يصدق أن يُتلى عند بابها دعاءً وابتهاً قولهُ تعالى: ﴿فَأَوْوِا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾ (الكهف: ١٦). وإن للتجارة والصناعة هنا لمكانة أيّ مكانة، غير أنها ليست لكنز الأموال الطائلة، ثم تبيزها في الملاهي واللوات، أو إسرافها في الرّعيّا أو في الأثاث، وإنما هي للسّحاء سحاً، استجابةً للحق ونفعاً للخلق، وهي للإتفاق في سبيل الخير والبرّ، والبذل في طريق العلم النافع والعمل الصالح... ألم يقل نبينا المكرّم، فده أمّي وأبي: "يا عمرو، نعم المال الصالح للرجل الصالح" (رواه البخاري). ولقد مرّت الأيام كلمح البصر إلى أن جاء موعد الملتقى، فجمع المئات من المحيّن المشوقين المشوفين، كلّهم جاء ليشنّف أسماعه بذكر الحبيب المصطفى عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، في هذه البلاد التي تستمرّ الاحتفالات فيها بمولد البشير شهوراً وشهوراً.

كانت البداية بوجبة سخية مع عشاء طيب المذاق، تحفّه الملائكة، حيث يتعارف الناس من مختلف الأمصار، بوجوه مسفرة وأخرى ضاحكة وثالثة مستبشرة... وإنك لن تصادف -في هذا المقام الإيماني المحمدي- وجهاً عبوساً قمطريّاً، ولا وجوها عليها غبرة ترهقها قتره... وإنما هي الرحمات حين تنزل من رب رحيم ودود كريم.

فشنّف الأسماع مجود من أهل البلد كهلّ، غير أن صوته لا يزال غصّاً طريّاً، وظني أن سيدنا الحبيب المصطفى لو سمعه، لقال له ما قال للصحابي الجليل أبي موسى الأشعري عليه رضوان ربي: "لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود" (رواه مسلم)؛ ولقد اتفق العلماء الأفاضل أن المزمارة دلالة على الصوت الحسن. ثم انبرت فرقة "النور الخالد" للأناشيد والمدائح بأصواتها الناعمة الشجية المليحة الصافية النغم، فقامت تردّد بحنين وأنين، مدائح وأناشيد عن المجتبي الحبيب، بلغات أربع، تتراوح بينها في سلاسة، تنسيك القيود والحدود، وتذكرك أن اللغات جميعها آية من آيات الله تعالى، قبحها من قبح محتوها وجمالها من جمال فحواها.

وعلى القاعة تنزلت غمامة، فطارت القلوب طرباً واعتصاراً، لشاعرة تُخاطب رسول الأنام بلسان قومها، فتبكي القلوب الضارعة وتدميها، وتذرّ الأفواه فاغرة والأذان مُطرقة، وهي تنادي بأعلى صوتها: "يا رسول الله... يا رسول الله... يا رسول الله".

وكان للضيوف والأعيان كلمات للترحيب، ونصائح كالجواهر تتنزل على الجموع وضيئة ناصحة ناصعة... وما ذلك إلا أنها نبتت في أرض الشوق، وسُقيت بماء العشق، ونمت تحت سماء الوصل، ثم أثمرت خيرات وبركات، وغمرت الأرواح ظلاً ظليلاً، وأحلّت الوجوه نوراً وضيئاً. وأخيراً، جاء بيت القصيد، عبرات وعبارات في محاضرات وانطباعات



حول "النور الخالد"، ولقد زالت جميع أسماء الخلائق وقتها، إلا اسمٌ واحدٌ فريدٌ هو اسم سيد الثقلين محمد ﷺ. ولقد صدق الله العظيم القائل وهو يبشر نبيه وينذر شانه: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ (الشرح: ١-٤)، ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ (الكوثر: ١-٣). وحتى اسم "فتح الله" قد ذاب في بوتقة الحبيب القريب. وكُلِّي يقيُنُ أن رجاء الأستاذ قد تحقّق، وهو الذي يكره الأضواء، ويعشق الظل، ويتفنّن في "تفسير الذات"، وفي درء المدح والمحمدة... فيختفي عن الأنظار، وينهي عن نسبة أيّ عمل له، ويكي لربه ليل نهار: "يا ربّ، لا تُرني ربيع عملي، وانفع به غيري، ولا تجعل حظّي من عملي في دنيائي، وأدخِر لي الأجرَ ليوم لُقياك... آمين يا رب العالمين".

(١) مدير معهد المناهج، الجزائر العاصمة / الجزائر.

الهوامش

(١) إشارة إلى قصيدة "بدا حاجب الأفق"، للأستاذ فتح الله كولن، مطلعها: أوشك السفر على الانتهاء*** وبدا حاجب الأفق*** ذاك الربيع الذي كان مخضراً بكل أشكاله*** أصبح اليوم مضمراً.

(٢) عاش أحمد شوقي أحلك أيام المسلمين، وعابن سقوط الخلافة، وتكالب الاستعمار الغربي على البلاد المسلمة، وضعف المسلمين وهوانهم وخورهم حينها، وذلك ما بين ١٨٦٨-١٩٣٢ م.

(٣) القضية الكبرى لشعبنا، للأستاذ فتح الله كولن، وهو مقال نشر في كتاب "ونحن نقيم صرح الروح"، ص: ١٠٥.

(٤) "النور الخالد"، للأستاذ فتح الله كولن، وقد طُبِعَ طبعة راقية بديعة، وبيع منه في مولد هذه السنة فقط، باللغة التركية، حوالي مليوني نسخة، إضافة إلى ملايين النسخ التي بيعت من قبل، باللغة الأم، وبشتى اللغات التي ترجم إليها، علماً بأن الهدف هو تبليغ صوت الرسول ﷺ إلى جميع سكان العالم بجميع لغات البشر.

(٥) محور "طانجا-جاكارتا" بتعبير مالك بن نبي، ومحور "مراكش-جاوا" بتعبير فتح الله كولن.

(٦) دنيا في رحم الولادة، للأستاذ فتح الله كولن، وهو مقال نشر في كتاب "ونحن نقيم صرح الروح"، ص: ١٢.

(٧) وخاتم النبيين عن الغيب، للأستاذ فتح الله كولن، وهو مقال نشر في كتاب "ونحن نبي حضارتنا"، ص: ١٤٤.

الإنسان والنبات



أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴿النجم: ٣٢﴾. والإشارة إلى نشأة الناس كنشأة النبات إشارة تستدعي التأمل، فهي توحى بالوحدة بين أصول الحياة على وجه الأرض. وإن نشأة الإنسان من الأرض، كنشأة النبات من عناصرها الأولية يتكون، ومن عناصرها الأولية يتغذى وينمو، فهو نبات من نباتها، وهبه الله هذا اللون من الحياة كما وهب النبات ذلك اللون من الحياة. فكلاهما نتاج الأرض وكلاهما يرضع من هذه الأم،^(١) وبعد الموت يعود كلاهما إلى الأرض ترابًا.

سيظل القرآن الكريم معجزة الله الخالدة، تحتاج العقل وتتحداه إلى الأبد. فالقرآن معجزة العلم والمعرفة. ومن الإشارات القرآنية قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿نوح: ١٧﴾، وفي ذلك إشارة تلمح إلى درجة التشابه بين الإنسان والنبات وتوحد النشأة ووحداية الخالق.

والتعبير عن نشأة الإنسان من الأرض بالإنبات، تعبير عجيب موح، وهو يكرّر في القرآن الكريم بصور شتى كقوله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبِثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا ﴿الأعراف: ٥٨﴾، وكذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ

س

أصل واحد

إذا فتق الجنين البذرة وفسق عنها -عند الإنبات- مكوّنًا جذيرًا صغيرًا معتمدًا في غذائه على مدخر أمه البذرة، متجهًا إلى الأرض حيثُ يستطيل ويشتد عوده فيثبت فيها ويتغذى منها، شأنه في ذلك شأن الجنين في الإنسان والحيوان الذي يتغذى من أمه في بطنها ثم من لبنها حتى فصاله... وينشر الجذر شعيراته في التربة يتغذى من فضل الله من ماء وعناصر غذائية ينتقيها بعناية فائقة فيما يعرف بـ"النفاذية الاختيارية" عافًا عما لا يحتاجه مقتصدًا فيما يرغبه فيه... ثم تأخذ هذه المواد مسارها لأعلى لتصل إلى كل خلايا النبات، ضاربة أعظم الأمثلة لعظيم قدرة الله ﷻ، وضآلة قدرات الإنسان الذي يعجز عن صنع مثل هذا مهما أُوتي من علم وتقنية.

النباتات المفترسة

لا حياة للإنسان والحيوان بدون النبات، فالمملكة الحيوانية جُبلت على التطفل على النبات، لكن هل كل النباتات -التي يقدر أعدادها بنصف مليون نوع- بهذا السمو والنبل والرفعة؟ كلا، بل إنها تضم العديد من النباتات ذات الممارسات

العدائية الشرسة، مثل الإنسان! فمنها ما يهاجم شقيقة من النبات أو يعتدى على بعض الحيوانات أو الحشرات الضعيفة بأسلحتها الكيماوية؛ فالنبات أول منتج ومستخدم للأسلحة الكيماوية. والغريب أن تلك الأنواع المفترسة تنتج غذاءها ذاتيًا كنبني جلدتها، ولكن لديها أعضاء تحورت لتمكنها من اقتناص فرائسها التي تمدها بالنيتروجين الذي تفتقر إليه التربة التي تقطنها. ويجب ألا نترك هذا المقام دون أن نسوق أمثلةً لنباتات مفترسة تشترك جميعها في آلية الافتراس، معتمدة في ذلك على إفرازها سائلًا حلو المذاق، جاذبًا للضحية برائحته الذكية، وما أن تصل الضحية إلى الشرك، يُقفل عليها الفخ وتهوى في بركة من الأحماض الكاوية والأنزيمات المحللة، فتتحلل الضحية وتُمتص وتمر في عصارة النبات، هذا برغم اختلاف الأشكال والأسماء فمنها "نبات الديونيا" (Dionaea)، و"الدروسيरा" (Drosera) و"نبات الجرة" (Nepenthes Ventrata). وإن كان الإنسان لا يخلو من الطفيلي، فعالم النبات يُعج بالمتطفلين والفضوليين، مثل "نبات الهدال" (Mistletoe) أو الدبق ذي الأوراق الخضراء، التي تمكنه من صنع غذائه بنفسه، إلا أنه يتطفل على النباتات التي يتسلق عليها، فيُولج ممصاته داخل الأنابيب حاملة الغذاء إلى أجزاء النبات، فيسلب منه الماء والغذاء مما يلحق به الذبول أو يقضي عليه. وهناك الهالوك المتطفل على نباتات العائلة البقولية الذي إذا تمكن منها، سبب خسائر فادحة.

نبات يدمع

النبات كالإنسان يُولد ويموت ويفرح ويحزن، بل قد يُصاب بصدمات عصبية! هذا ما أكدته النتائج المسجلة بأدق الأجهزة على نباتاتٍ وُضعت في مركبات الفضاء، حيث عانت من الاضطراب والخوف، وما لبثت أن هبطت على الأرض حتى عاد إليها الهدوء والاطمئنان والسكينة، وانقشع عنها التوتر والقلق.^(١) وعلى النقيض من ذلك فهي تتمايل راقصة منتشية فرحًا بالماء بعد العطش. وكما يُلطف العرق درجة حرارة الإنسان، فالنباتات تملك أنظمة تكييف تُلطف من حرارتها بتبخير الماء عن طريق الورقة فيما يُعرف بـ"التنح" بتقنية معجزة، حيث يُحاط الشجر بخليتين حارستين تتحكمان



في فتح الثغر وإغلاقه حسب حالة الجو وحاجة النبات للماء. وقد يزيد النتح في بعض النباتات فيتجمع بخار الماء في قطرات يُخيل للنظر أنها تبكي، ويبدو هذا جلياً واضحاً في نبات القلقاس الهندي الذي يدمع في الليلة الواحدة حوالي (١٠٠ سم مكعب)، من الماء المُحمّل بالأملاح والأحماض الأمينية وغيرها... ويتم هذا في قنوات تشبه القنوات الدمعية في الإنسان. والنبات يتنفس كالإنسان؛ فيتنفس الأكسجين، وينتج ثاني أكسيد الكربون على مدار حياته، ولم تُعرف هذه الحقيقة إلا في العام (١٧٧٩م).

النبات معمل متحرك

للنبات ساعته البيولوجية التي تضبط إيقاع حياته من نوم ويقظة، فتنبه بموعد شروق الشمس ليُهيئ نفسه ويشمر عن ساعده، ليقوم بتشغيل أكبر المصانع الحيوية على وجه الأرض، ليُنتج بلايين الأطنان من الغذاء فيما يعرف بـ"البناء الضوئي" حيث تُحور بروتين يسمى "D1" مهم جداً في عملية البناء الضوئي. وإذا اشتدت الحرارة، تُنبه النبات لإنتاج فلافونويدات التي تعمل كسراويل تقي النبات شر هذا الحر. وقد يخلد النبات للنوم، وأهم أجزاء النبات التي يظهر عليها النوم، هي الأزهار التي تستسلم للنوم ليلاً أو نهاراً.

وإن كان الصوت عند الإنسان وسيلة اتصال وتبادل أفكار، فالصوت عند النبات ما خلق إلا لمُناجاة الواحد الأحد وتسيحه ليل نهار... ففي تجربة باهرة عالية التقنية تمت في جامعة "باريس ٧" بمختبر كهروفيزيولوجيا الأغشية، ثبت أن وجود بعض المذابات مثل النترات، مكن الباحثين من ملاحظة استقطاب زائد عند الخلايا، وخاصةً عندما تمتص الخلايا النباتية أيون النترات أو الكلورور. وهذا الاستقطاب الزائد والمُتغير بتغير المذابات، يمثل الاستقطاب العام للخلايا النباتية، ويمثل الحالة الفسيولوجية التي تكون عليها الخلايا. هذا الاستقطاب يُؤكد فرق الجهد بين داخل الخلايا والوسط الخارجي. هذه العمليات مكنّت من قياس كمي وكيفي للوسط الكهربائي عند الخلايا والبروتوبلازما، وكان من الضروري ربط كشاف الذبذبات الناتجة بمُضخم جُد دقيق، لتحويل إشارات الذبذبات إلى أصوات مُتزامنة مع الجهد الكهربائي المُقاس بكشاف الذبذبات.

خلاصة القول، وُجد أنه كلما زاد أيون النترات عند الخلية

سُجل استقطاب زائد، وكلما انتشرت كمية زائدة لأيون النترات داخل الخلية كلما كان الاستقطاب الزائد قوياً، مما يؤدي إلى ارتفاع همسات الصوت عند الخلية، مما سجّل صوتاً يُشبه ذلك الصوت الذي يُطلقه الحوت في وسطه المائي. وكما هو معلوم أن النترات بقدر نفعها للنبات يكون جُد مضر عندما تزيد الكمية المنتشرة منها بداخل الخلايا، مما يجعل الخلايا في حالة مغايرة، ويترتب عنه همسات أكبر من سابقتها،^(٣) وصدق الحق عندما قال: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (الإسراء: ٤٤). وكما يسجد الإنسان والنجم وسائر المخلوقات لله، يسجد النبات: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ (الرحمن: ٦)، وهذا ما أكدته القياسات المأخوذة على أوراق النباتات والأشجار؛ فلقد ثبت أنها تأخذ اتجاهًا مُعينًا على مدار اليوم وكأنها تأخذ وضع السجود.

معجزة التشابه

الخلية هي الوحدة التركيبية والوظيفية الأساسية للحياة، وتعتبر الخلية كائناً حياً كاملاً في الكائنات "وحيدة الخلية"، بينما في الكائنات الراقية "عديدة الخلايا" فإنه يوجد تجمع لعدد هائل من الخلايا المختلفة، والتي تُنظم بكل دقة لتكون نسيجاً، والأنسجة تكون بدورها عضواً، والأعضاء تتحد لتكون كائناً حياً، سواء كان نباتاً أو حيواناً أو إنساناً.

وبالرغم من تعدد النواتج التخصصية والوظيفية للخلايا في الكائنات المختلفة، إلا أن الخلايا متشابهة إلى حد كبير في احتوائها على عديد من العضيات التي تتم فيها التفاعلات الكيماوية، كذلك تشابه في "الأغشية البلازمية" و"الأحماض النووية" (DNA&RNA)، والتي تعمل كمكونات أساسية في ميكانيكية نقل المعلومات الوراثية ونقل الصفات من جيل لآخر في الكائنات، سواء كان إنساناً أو حيواناً أو نباتاً. هذه الأحماض النووية جوهرية الوظيفة توجد في جزء متناهي الصغر، قطره (٥-١٠ ميكرون)، منغمس في السائل الخلوي لكل الكائنات يسمى "النواة".

والمعجز أن (DNA) أو "الحمض النووي الديوكسي ريبوز"، له تركيب واحد في الإنسان والكائنات الراقية (Higher Organisms)، ومنها بالطبع النبات. ويتكون (DNA) من شريطين ملتفين حول بعضهما يشبهما السلم، والذي تتكون جوانبه من



نبات القلقاس الهندي

يحصل عليها النبات من الشمس، إلى طاقة كيميائية مخزنة في نواتج البناء الضوئي، وبلايين الأطنان من المركبات العضوية التي تتغذى عليها الكائنات التي تعيش على سطح الأرض. وهنا يوجد معمل دقيق أيضاً، يقوم على تبادل الأكسجين وثنائي أكسيد الكربون، وتتجلى هنا معجزة التشابه الكبير بين التركيب الكيميائي لكل من صبغة "الهيم" وصبغة اليخضور؛ فكلاهما عبارة عن مترابك للمركب الحلقي المعروف باسم "بروفين"، والذي يتكون من أربع حلقات البيروكس-حلقة خماسية غير متجانسة تحتوي على النيتروجين في أحد أركانها- متصلة ببعضها في شكل حلقة بواسطة أربع مجموعات من الميثين، مع بعض الفروق في نوعية المترابك تناسب وظيفة كل منهما. فالهيم عبارة عن مترابك حديدوز، إذ يتمركز أيون الحديد الثنائي وسط حلقة البورفين، أما في حالة اليخضور فنجد الماغنسيوم بدلاً من الحديد.^(١)

ولعل هذا التشابه العجيب والمعجز، هو ما دعا الكثير من العلماء للاعتقاد أن الكلوروفيل مادة بناء الهيموجلوبين لكل الأكلة من البشر والحيوانات، حيث وُجد أن للكلوروفيل تأثيرات بنائية للدم شبيهة بتأثيرات الحديد، مما يمكنه من علاج الأنيميا الحادة. ولما كانت عصارة النبات المحتوية على الكلوروفيل، تحتوي على أكسجين سائل، مما يسمح لبقاء الدهن ووضوح التفكير، كما أنه يعمل كمانع طبيعي للأكسدة. وفي النهاية، إن الله وحده هو الخالق البارئ المصور، وإن الكون لم يُخلق صدفة، بل خُلق بيد مُبدعة، والكون يعج بالكثير من آيات الله... وما علينا إلا أن نتأمل ونتفكر في بديع خلق الله ﷻ. ■

(١) باحث في معهد بحوث تكنولوجيا الأغذية، الجيزة / مصر.

الهوامش

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب، ج: ٦، دار الشروق، مصر.

(٢) الله والعلم الحديث، لعبد الرزاق نوفل، ط: ٣، دار الناشر العربي، ١٩٧٣.

(٣) همسات وأصوات الخلايا النباتية، لعبد المجيد بلعابد، مجلة الإعجاز العلمي، العدد: ١٩.

(٤) هذا هو علم البيولوجيا، لإرنست ماير، ترجمة: د. عفيفي محمود عفيفي، سلسلة عالم المعرفة، العدد: ٢٧٧، يناير ٢٠٠٢.

(٥) أوجه الشبه بين الإنسان والنبات، مجلة عالم الكيمياء، العدد: ٤، ص: ٥٦.

جزيئات السكر والفوسفات، أما درجاته فتتكون من مجموعة من القواعد النيتروجينية؛ معنى ذلك أن كل شريط، يتكون من وحدات متكررة تسمى "النكليوتيدات" (Nucleotides)، التي تتكون كل منها من جزيء سكر وجزيء فوسفات وقاعدة نيتروجينية. وهناك أربع قواعد نيتروجينية مختلفة وهي "الأدينين" و"الثيمين" و"السيتوزين" و"الجوانين"، وتتابع هذه القواعد على "شريط الحمض النووي" (DNA) هو الذي يُحدد التعليمات الوراثية لخلق الكائنات الحية المختلفة.^(٢) وكذلك فإن اختلاف تتابعها داخل كل نوع، يخلق التباين بين أفراد النوع الواحد.

ولعل من أبرز مناهج التشابه بين الإنسان والنبات، هو تركيب اليخضور في النبات واليخضور في الإنسان؛ فالهيموجلوبين الموجود في دم الإنسان والحيوان، واليخضور -وهو الصبغة الأساسية في النبات- من أهم المركبات الحيوية التي تغذي الحياة على سطح الأرض. يتكون الهيموجلوبين من جزأين، أحدهما يحتوي على بروتين خاص وبه عنصر الكبريت، ويسمى "جلوبين"، إذ يكون متحدًا مع الجزء الآخر وهو صبغة الهيم الحمراء، ويوجد الهيموجلوبين في خلايا الدم الحمراء، وعند مروره في الشعيرات الدموية بالرئة، يحصل على الأكسجين مكونًا مركبًا جديدًا يسري في الدورة الدموية، وعندما يصل إلى أنسجة الجسم يمدّها بالأكسجين. كما يتحد مع ثاني أكسيد الكربون الموجود في هذه الأنسجة مكونًا مركبًا جديدًا يسري إلى الرئتين مرة أخرى، ليخلص الجسم من ثاني أكسيد الكربون في عملية الزفير وهكذا... أي إنه معمل متحرك داخل الجهاز الدوري بقدرة الله.

أما اليخضور، فيقوم بوظيفة تحويل الطاقة الضوئية التي

تجليات الصبح

ت

بعضهم البعض؟ ما دامت غايتي من مذهبي هي الوصول إلى الله، وما دامت غاية أخي الوصول إلى الله أيضاً، فما شأنني إن سلك طريقاً آخر غير طريقي؟ لربما كنتُ سلحفائية الحركة في حين يملك هو أجنحة قوية.

ناشدتك الله يا صبح أن تعلّمنا أن صدر الدين أوسع، وأن الربّ واحد، واختلاف الأفهام، وتفاوت الأذواق، وتباين الطرق، لا يستدعي العداة والتناحر والبغض. ثم لتأذن لي بعدها يا صبح أن أحلم بميلاد إنسانية رحيمة.

ها حشراتٌ وطيورٌ وحيوانات تسرح وتمرح في الغابات، تطلب الرزق من بقعة لبقعة.. تسافر، تهاجر دون أن تحمل جواز سفر ولا تأشيرة مرور، ذلك هو دستور الحياة.. أما في دستور بني الإنسان فمن أين وإلى أين وكم ومتى وكيف؟ واخجلي من دستورنا المعقد يا صبح أمام دستور الأكوان! أفلا أرحمتُ عنّا ظلام الجهل بشمسك الساطعة؟ أليست الأرض وحدة كاملة لجميع الأحياء؟ فما بالنّا نجزئها بالحدود والتخوم؟ أجبني يا صبح أجب، بثغرك النوراني فلتُجِب.. علّمنا ممّا علّمك الله.. عسى أن تستيقظ شمس أرواحنا، وتنهض من سرير سباتها. ثم ائذن لي بعدها يا صبح أن أحلم بميلاد إنسانية حكيمة.

ها أسرةٌ من صخور متراصّة يحسبها الرائي صمّاء، وفي جوفها رقصة الحياة، في تماسكها ملاحم وعظات، تتعانق سواعدها جماعات جماعات، تحمل بعضها بعضاً قروناً طويلة دون أن تتن أو تشكو أو تتذمّرا! حبّذا يا صبح أن تزيدنا من فقه الحياة حتى نتعظ ونخشع أمام عظمة الخالق وجبروت صنعته، فتتواضع ونخفّف من غلوائنا وغطرستنا. ثم لتأذن لي بعدها يا صبح أن أحلم بميلاد إنسانية جميلة.

أيها النور المبتق من الظلام، ما أحرّك بأذان تُحسِن فن الإصغاء إلى غنائك، لأنّك أبداع قصيدة نظمتها السماء.. خذنا إلى ملكوت عليّاتك، اهدنا بضيائك، ارتحل بنا فوق مطايا أنوارك، يُح لنا بكل ما في جبينك الوهاج، من أسرار تألف الكائنات وإخائتها وتعاونها، ثم افرك بشروق شمسك أعيننا، عسى أن نحظى بميلاد إنسانية جديدة. ■

(*) أدبية إماراتية.

تحدث يا صبح واحك، عسى أن توفظ بضوء حديثك النور الهاجع في أرواحنا فنصحو. علّمنا الرحمة أيها الصبح، علّمنا، من شآبيب السحاب، علّمنا.. أوليست أنامل شمسك الذهبية قد غزلت من أنفاس البحر اللاهث إكليل ياسمينات يضاء يسبحن في الفضاء، محمّلات بإكسير الحياة والأحياء؟

ألا فلتسّقنا يا صبح من أجفانها الصادقة دمعاً طهوراً، عسى أن نتعلّم كيف نسقي بعضنا البعض! بُح بأسرارك يا صبح، واصدح بحناجر من نور فلتصدح.. أفما آن الأوان أن تسمع الأذان بلاغة صمّتك الصاحب فتفقه؟ ألا نزعت الغشاوة عن أعيننا لنبصر الحكمة في عينك؟ ألا أعرتنا بؤبؤك قليلاً لندرك سرّ هذه السكينة المرسومة على وجهك؟ أيّا صبح برّد لواعج روعي ولو بقطرة من رحيق أنوارك!

ها ولجتُ الآن بساتين عذراء وأنا مُتأبطة بذراع ضيائك.. أكتافي ملتصقة بأكتافك.. معانمي الهويّنا والعصافير تتهادى فوق رأسينا، تغرق في يَمّ أحلامها البيضاء. الله.. ما أرحم بديع الأرض والسماء؛ خلق العصافير بهجة للأحياء، فما عساها تكون الأرض بلا موسيقى أو غناء؟ ها تسبّح الروح مذهولة لأعظم فنان.. وإذا بأربعة فتيان يصوّبون بنادقهم صوب أسراب الجمال، فيخلفو وراءهم دماراً ودخاناً.

واصبحاه! ما لهم يتكالبون على أكل عصفورة لا يسدّ لحمها حتى جوع فأرة؟ بالله عليك يا صبح علّمهم أن التهام ألوانها وأنغامها خيرٌ لهم من التهام لحمها، وأن التلذذ برؤية خفق جناحها أعظم بكثير من التلذذ بعظامها. ولتأذن لي بعدها يا صبح، أن أحلم بميلاد إنسانية رقيقة.

ها أقبلتُ سلحفاة تدبّ فوق المنعطفات ببطء، وذا غزالٌ يعدو بسرعة الريح، والنسر قد بلغ قمّة الجبل بخفة واحدة من جناحيه. طريق السلحفاة لا يشبه طريق الغزال ولا طريق النسر.. أسلوب السلحفاة مختلف عن أسلوب الغزال وكذا أسلوب النسر.. جميعهم عباد الله وإن لم يفقه بعضهم تسبيح بعض، لكل منهم مذهبه ومنهجه وطريقته، لكن أحدهم لا يكفّر الآخر، لا وما تصارعوا يوماً صراعات طائفية مجنونة. فعلام يا صبح أرى البشر يتقاتلون، عاجزين عن التعايش مع

إذا أفشى أحدهم سرّك مرة ومرتين، أليس من الغباء أن تودعه سرّك ثالثاً، فإنّ دلّ ذلك على شيء فإنّما يدل على قصر نظرك، وقلة إدراكك، أما من أنضجته التجربة فلا يلدغ من جحر مرتين.

(الموازين)



سلطة الكلمة وقوتها - ١

وتحصل ناصيته وانكشفت له أسراره ومسالك تصريفه وصياغته، فتح القلوب وشد العقول واكتسح الأرواح.

الكلمة مفتاح أسرار الوجود

الكلمة قوة خارقة، بمفعولها خلق الله الوجود كله، بل هو يعيد -جل وعلا- الخلق في كل وقت وحين... ف"كن" التي خلق بها الله تبارك وتعالى كل شيء كانت مرة واحدة، لكنها ما تزال سارية المفعول إلى ما شاء الله... وبالكلمة والكلام قدر الله تعالى على الإنسان التفاعل مع الوجود، ومعانقة

الكلمة^(١) سلطة وقوة... الكلمة فعل ومفعول،

أثر وتأثير... الكلمة مفرد على الحقيقية،

لكنها جمع على المجاز لدالاتها على متعدد،

إذ من الكلمة يتكون الكلام المفيد الدال على معنى، الكلمة

فعل واسم وحرف... فهي حدث وشيء وسمة هذا الشيء،

وهي رابط وواصل، وبالكلمة نصل وتتواصل، نفهم الماضي

ونعي الحاضر ونبني المستقبل.

عالم الكلام عالم عجيب، متى أعطي الإنسان زمامه

١

حقيقة الخالق ومخلوقاته. وكلمة "اقرأ" هي أول ما لقنه جبريل ﷺ بأمر الله تبارك وتعالى الرسول ﷺ؛ ففعل القراءة "كلمة"، لكنها كلمة ذات امتداد واسع في الزمان والمكان وفي الدلالة والمدلول. فقد قرأ الرسول ﷺ بعد هذا الأمر كل شيء، واستوعب بعد القراءة ومفهومها؛ لقد قرأ الوجود وأدرك حقيقته واستوعب دلالاته كما استوعب كل الأنبياء والرسول ذلك قبله، لكنه حصل ﷺ كل ما استوعبه ووعته أرواحهم الصافية النقية. لكن صفاء روح الرسول ﷺ تتقدم بمسافات عليهم جميعاً، لأنها المحضن الذي اختاره الله

إن الكلمة مخلوق من مخلوقاته
تعالى، بها ترجم قدرته المطلقة،
وبها وصف أسماءه التي تجلي
بها على الوجود، ولذلك فإن
إدراك حقيقة الكلمة، هو
إدراك لهذه القدرة المطلقة،
فلقد شاءت إرادته تعالى أن
تكون الكلمة وسيلة إنطاق
المخلوقات، بما في ذلك الذات
الموظفة للكلمة.

موجودة، لكنها إذا لم تجد الفاعلية التي تحرك كيانه من الجدور، فستظل في حالة من الكمون والانتظار الطويل، ولذلك اعتبر البيان محرراً فعلاً يبعث الأموات وينفخ الحياة وينشر الدفء.

يدرك أهل الإبداع والبيان على الحقيقة لزوماً، بأنهم مهما وصلوا ومهما ارتقوا في دائرة البيان، فهم مجرد دالين يدلون بوسائلهم المحدودة على البيان المطلق ويعبرون بوسائله وأدواته عليه، فهم يعرفونه لغيرهم ممن لم يفتح الله عليهم بإدراك بعض جوانبه. ولهذا كان أهل الفن والأدب وأرباب الكلمة، ملزمين بالاسترشاد

ببيان صاحب البيان، وملزمين بالدلالة عليه والإرشاد إليه، أما غيرهم فهم الغاوون ولا يتبعهم سوى الغاوين.

عجز أرباب البيان

كان العرب قبل نزول الوحي، أرباب البيان واللغة والشعر وفنون القول من خطابة وسجع وغيرها... وكانت لهم قدرة كبيرة على إدراك جمال البيان، وتبيين مكان دقة التعبير وسمو اللفظ ورشاقة العبارة... ولذلك فإن أول ما بهرهم في القرآن الكريم هو مطلق بيانه، بالإضافة إلى وضوح الحجج وعقلانية الفكرة ومنطقها... وفي لحظة وجيزة ألفوا أنفسهم - وهم أرباب البيان وأهله وأصحاب القول الفصل فيه - عاجزين عن منافسته والإتيان بمثله. لقد بهرهم القرآن الكريم ببيانه وتفوق بمسافات لا تحسب على بيانهم، تجاوزهم القرآن الكريم وتركهم خلفه يلهثون، وتجاوز الصورة المثالية التي ظلت دهرًا طويلاً منقوشة في ذهنهم على أنها النموذج المثالي للقول وقوة العبارة، فاقتنعت العقول بأن مصدر البيان القرآني ليس من بشر يساويهم في القدرة الذهنية والبيانية، بل هو من مصدر آخر، وأدرك أهل النفوس الطيبة بأن صاحب البيان الذي وجدوه في خطاب القرآن الكريم، ذو قدرة خارقة على البيان، وأنه هو الله تبارك وتعالى. كان الناس على عمومهم يعرفون الله لكنهم أشركوا معه آلهة توهموها، وأبطلوا مع مرور الزمن ربوبيته، لكن خطاب القرآن المبين، فتح قلوب العديد منهم فآمنوا وأعلنوا عبوديتهم لله تبارك وتعالى

تبارك وتعالى لاستقبال بيانه الختامي. وسيرته ﷺ أكبر دليل على أنه اختيار اختياراً من أجل تلقي هذا البيان، الذي يمثله خطابه في القرآن الكريم، وتشهد عليه تفاصيل الوجود كله. قال الله تبارك وتعالى "كن" فكان الوجود كله، واكتسبت كل المخلوقات بفعل "كن" بياناً عظيماً يجلي عظمة من خلق وعظمة من قال: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾. ولذلك فهذا الوجود الجميل الرائع الصنعة الدقيق الإبداع، يعبر ببيانه عن كثير من أسماء الله الحسنى التي تجلي من خلالها على الوجود. فيبان الموجودات ومنطقها، تعبير عن قوة وعظمة المتجلي بقدرته على الوجود، بل هو بيان يعكس جزءاً يسيراً من البيان المطلق الذي هو انعكاس أسمائه الحسنى.

"البيان" كما يعرفه الأستاذ فتح الله كولن، هو روح كتاب الكون ومضمونه ولونه وأسلوبه، وهو قانون المخلوقات المتفاعلة في الكون، وهو كذلك ختم الحقيقة الإسلامية وسلطتها. فالبيان "بهذا المعنى، منهج يدرك به الإنسان - باعتباره أرقى مخلوقات الله تبارك وتعالى - عظمة مصدر القدرة المطلقة، ووسيلة لمعرفة الخالق والسير إليه تعالى. فإدراك البيان في أصله وحقيقته، هو إدراك الوجود في كل تفاصيله الكلية والدقيقة، وهو الوعي بمكان الإنسان في النظام المتوازن الذي صب الله فيه الوجود.

والبيان كذلك قوة كبيرة وسلطة تؤجج القلوب وترفع مستوى قابليتها وقدرتها على الفعل؛ فقد تكون الهمم حاضرة

وسلموا بما نزل على محمد ﷺ. وأما إصرار البعض على إنكار حقيقة البيان الظاهر، فلم يكن ليغطي على من آمن بمجرد سماع بضع آيات منه أو سور منه كما وقع مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقصة إسلامه مشهورة تذكرها كتب السير والمناقب وكتب النقد.

إن رد فعل القلوب والعقول الطيبة المتوازنة العادلة الصادقة، هو الاعتراف بأن مصدر البيان القرآني، لا يمكن أن يصدر عن بشر وإن كان هذا البشر يستطيع فهم معانيه وإدراك مراميها، لقد أدرك هؤلاء أنه ليس من محمد ﷺ.

كان العرب قبل نزول القرآن

الكريم يفسرون الإبداع والأدبية^(٣) تفسيراً خاصاً، فربطوا السجع بالكهانة - والكهنة فئة اجتماعية ادعت قدرة خارقة كمعرفة المستقبل والاتصال بعوالم غائبة- وقالوا إن لكل شاعر شيطان يوحى إليه الشعر ويعينه على الإبداع والتفوق الفني والأدبي، وسموا بعض شياطين الشعر هؤلاء، بل ارتبط أغلب فحول الشعراء بأسماء شياطين بعينهم ذكر "أبو زيد القرشي" بضعاً منهم في "جمهرة أشعار العرب". فالتفوق في القول والإبداع قد ارتبط في ذهن أهل الجزيرة العربية بقوى خارقة، لكنها مع نزول القرآن الكريم ستأخذ بُعداً جديداً وهو الاقتناع بأن البيان الحقيقي هو من الله تبارك وتعالى، وكل البشر عاجزون عن محاكاة البيان الإلهي والإتيان بمثله.

مدارات البيان في القرآن الكريم

إن مدار البيان القرآني لا يميل في عمومها عن بسط مختلف مقومات العبودية لله تبارك وتعالى، والدلالة على مخلوقاته التي هي بوجه من الوجوه بعض عناصر "البيان"، وكأن البيان متفرع إلى مظهرين:

• مظهر شهودي تقوم فيه الموجودات وتناسقها بيان الوجه الآخر للبيان الكلي، الذي يعتبر الرسل الكرام عليهم السلام مرشدين إليه ودالين عليه، والذي يعتبر الرسول ﷺ رائد الرسل جميعاً وإمامهم فيه.

• ومظهر لغوي تؤدي فيه الكلمة مهمة أساسية، ويقوم فيه إحكام النظم بدور حيوي، لتتجلى بذلك معالم البيان

إذا كان البيان هو روح كتاب الكون ولونه ونموذجه المفتوح، فإن تذوقه وإدراك دقته وعظمة انسجامه يحتاج إلى قلوب واسعة تستطيع فك ترميزه بكل جوارحها، ولا يَفُكُ رموزه سوى من تشربت روحه الشفرة الدلالية والنظام التداولي لمكونات هذا البيان.

التمثلة في حسن اختيار اللفظ ودقة التماس العبارة المناسبة للمقام المناسب وترتيب اللفظ وفق حاجة الدلالة. وإذا كان لكل مقام مقال كما يقال، فإن البيان القرآني هو النموذج المثالي لهذه الحقيقة التواصلية.

ونظراً لعظمة البيان القرآني وجلاته، التف الناس جميعاً تحت لواء التوحيد ودخلوا في الإسلام أفواجا، وعرف الذهن تحولاً كبيراً فانطلق متأملاً الخطاب القرآني وبيانه، فاستخلص علماً من أجل العلوم وأقدمها في تاريخ حركة الإبداع الإسلامي، وهو علم الإعجاز الذي يهتم بالبيان باعتباره

سبيلاً من سبل المعرفة، ومنهجاً يؤدي إلى معرفة أصل البيان جل وعلا.

سلطة "البيان" وقوته لا حدود لهما، لأن هذا "البيان" يمد الجماد بالحياة، ويحرك الأحياء ويأسر الجموع بقوة تأثيره، ويدفعهم إلى أقصى حدود طاقتهم كما يقول الأستاذ فتح الله كولن. ولنا في التاريخ نماذج خطابية حركت الجموع ودفعتهم إلى أقصى حدود طاقتهم... فهذا طارق بن زياد وقد عبر من إفريقيا في شمال المغرب إلى الضفة الأخرى حيث القارة الأوربية فاتحاً، فخطب في من معه -بعد أن أقدم على حرق السفن التي عبرت المضيق- خطبة سجلها التاريخ وكتبها النقد والأدب بمداد الفخر، باعتبارها خطبة حركت القلوب وشحنت الهمم.

لا شك أن الخطبة وكلماتها قد كانت سبباً من أسباب زرع التوحيد في هذه المناطق من أرض الله تبارك وتعالى، فقد سُخِّرَ البيان ليكون قوة تصنع المستحيل، وتعرف بالبيان الذي بني الوجود كله على أساسه... فالذي مكن طارق بن زياد وهدهاه إلى ما هدهاه إليه، هو الروح الصادقة المتفاعلة مع البيان الكلي، إذ عَبَّرَتْ من خلاله إلى كل القلوب... ولا ندري من كان يخطب، أهو طارق بن زياد أم هو صاحب البيان، أنطق طارق بن زياد فعبر بالبيان عن البيان، وعبر بالبيان إلى القلوب والأرواح؟!!

إن الكلمة باعتبارها الوحدة القياسية الصغرى التي يقاس

بها البيان، لا تحدث تأثيرها ولا تحقق مفعولها إلا عندما توحد قبلتها جهة البيان المطلق وتسخر نفسها في دائرته، ولا بن عربي كلام جميل يشخص فيه البعد الروحي للكلمة حين يقول:

"قال الحق للكلمة:

أنت مربوبي وأنا ربك.

أعطيتك أسمائي وصفاتي:

فمن رآك رأني،

ومن أعطاك أعطاني،

ومن جهلك جهلني،

فغاية من هم دونك،

أن يتوصلوا إلى معرفة نفوسهم منك.

وغاية معرفتهم بك،

العلم بوجودك، لا بكيفيتك."^(٣)

إن الكلمة مخلوق من مخلوقاته تعالى، بها ترجم قدرته المطلقة، وبها وصف أسماء التي تجلى بها على الوجود، ولذلك فإن إدراك حقيقة الكلمة، هو إدراك لهذه القدرة المطلقة، فلقد شاءت إرادته تعالى أن تكون الكلمة وسيلة إنطاق المخلوقات، بما في ذلك الذات الموظفة للكلمة. بعبارة أخرى، فقد خلق الله الوجود كله بكلمة، وبالكلمة تتمكن كل هذه الموجودات من أن تبين بما في ذلك الإنسان ذاته، ولذلك فإن البيان هو روح الكلمة، باعتبارها سبيلاً من سبل الاعتراف بالربوبية.

خلق الله الوجود بعلمه وخط هندسته بكلماته، واختص الإنسان دون سائر المخلوقات بنعمة الكلام ونعمة البيان والإفصاح عما في داخله وما يريد، إذ إن أول ما علمه الله تبارك وتعالى لهذا الإنسان بعد صنعه له ونفخه الروح فيه هو الأسماء، يقول تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ٣١)، فنفخ الروح يمثل الاستعداد المعنوي لتلقي علم الأسماء ومعرفتها.

يبين الأستاذ فتح الله كولن، أن الإنسان خليط من تراب وماء، وأنه مستودع العلم والمؤمن عليه، ولكونه يملك القدرة على البيان، فقد ربي في سلطنته على الأرض، أي على التراب الذي خلق منه، ولذلك فإن الكائن الإنساني يملك القدرة على الحديث ليس باسمه فحسب، بل باسم جميع

الكائنات، إذ بفضل نعمة البيان صار هذا الإنسان مخلوقاً يتوجه إليه الخالق، كما يتوجه هو (أي الإنسان) إلى الله تبارك وتعالى، وبالبيان استطاع هذا الإنسان التعبير والإفصاح، وبتعبيره تمكنت الموجودات هي الأخرى أن تبين، وهي التي كانت قبل ذلك صامتة.

فقبل البيان الذي علّمه الإنسان كانت الكائنات صماء بكماء جامدة ولا أحد يستطيع معرفة كيفية كانت تبين، لكن المعروف هو أن الإنسان قد استطاع بنعمة البيان فهم وتأويل ونقل بيان كل الموجودات الأخرى، فكل كائن في هذا الوجود نموذج يتكلم، لكن لكل كائن أسلوب ميزه الله به، هو كلامه. والكلام وسيلة تتيح معرفة الحقيقة المطلقة التي هي حقيقة الخلق، إذ يصير كل شيء كألة موسيقية تؤدي سيمفونية ترفع الستار عن حقيقة المخلوقات ومهمتها في نظام البيان الكلي، فالبيان هو مفتاح أقفال كل الأبواب التي تؤدي إلى كنوز الفكر والمعرفة.

وإذا كان البيان هو روح كتاب الكون ولونه ونموذجه المفتوح كما يقول الأستاذ فتح الله كولن، فإن تذوقه وإدراك دقته وعظمة انسجامه، يحتاج إلى قلوب واسعة تستطيع فك ترميزه بكل جوارحها، ولا يَفُكُ رموزه سوى من تشربت روحه الشفرة الدلالية والنظام التداولي لمكونات هذا البيان. وهذه القلوب هي قلوب أهل الهم والهمة وفرسان القلب والحركية، الذين عشقوا البيان، والذين يحملون الإكسير إلى كل القلوب فتزداد المؤمنة منها قرباً من ربها، ويزداد يقينها بأن لكل مخلوق في الوجود وظيفة يتعين عليه القيام به، لا فرق في ذلك بين المخلوق في حد ذاته، وبين ما يوفق الله هذا المخلوق إلى إنتاجه أو إبداعه. ■

(٣) جامعة شعيب الدكالي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الجديدة / المغرب.

الهوامش

(١) استلهم هذا المقال من كتاب الأستاذ فتح الله كولن: "البيان".

(٢) لا نقول هنا "البيان"، لأن البيان مصطلح يدل على الخطاب الإلهي المتمثل في القرآن الكريم وفي جميع مظاهر الوجود الذي خلقته القدرة الإلهية.

(٣) الفتوحات المكية، تح: د. عثمان يحيى ود، إبراهيم مدكور، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦: السفر الثاني، ج: ١٠، ص: ١٩٤.

صلاة الروح

ليس شعراً ما أبوح به
تشتكي من ليل غربتها
فارقته وهي باكية
هبطت في الجسم مرغمة
كلما نامت مواجهها
تركت شمساً بلا لهب
كنت طفلاً عندما هطلت
سكنتني فاستضأت بها
هي من قبلي على شغف
أرقتني بالحنين إلى
مورق حباؤه درر

يا ابنة النور التي سكنت
أنت من نور الإله سنئ
وأنا يا روح، أنت، فإن
في فؤادي ثورة ودمي،
فأفيض من سناك على
قد مللت العمر أذرفه
زاهد لا شيء يأسرني

أضلعي واستوطنت كبدي
يرتوي من فيضه الصمدي
تهجريني، صار أمس غدي
وهمالولاك في بدد
لهبي فيضاً من البرد
في جحيم غير مبرد
غير حب الواحد الأحد

هو في السراءِ نافذتي
أنا في ذكراه منجذبٌ،
شاردٌ في أفق طلعتَه
عاشق لم تسبني أبداً
حيرتي فيما أراه هنا
وخلافاتٍ مروّعةٍ
طال في ليل النوى سفري
وهو في الضراءِ معتمدي
سارح، لا توقظو خَلدي
أتقرّى نوره بيدي
مقلّةٌ للغاتن الغرد
في وجوه الناس من عُقد
لم تدع في الأرض من أحد
وهوى من طولهِ جَلدي.

يا زمان الوصل في وطن
تحت عرش الله، يرفده
كم شربنا من مناهله
يتساوى في شريعته
ما الذي يبقى لعالمنا
ما الذي يبقى له ولنا
إن تخلى عن سكينته
بارئ الأكوان مبدعها
هو في سري وفي علي
هو في حلي ومرتحلي
هو في خبزي وفاكهي
وله أسلمت ناصيتي
سرمدي الوصل والأمد
ملكوتُ الحب بالمدد
وارتوى بالنور كل صدي
أرنبُ الغابات بالأسد
من مُني، أو طارفٍ تلد
في مدىّ بالهول محتشد
وتناسى واحدَ العَدَد
في بناءٍ باذخ صَليد
هو في نومي وفي سَهدي
هو في أهلي وفي ولدي
هو في قومي وفي بلدي
وحدهُ "سبحانه" سندي.

(*) شاعر يمّني.

مَنْ تَعَوَّدَ عَلَى إِفْشَاءِ أَسْرَارِ الْآخِرِينَ لَكَ لَا تَأْمَنَهُ عَلَى سِرِّكَ، لِأَنَّهُ كَمَا فَعَلَ بِأَسْرَارِ الْآخِرِينَ
فَإِنَّهُ سَيَفْعَلُ بِأَسْرَارِكَ.

(الموازين)

* * *

أثر الوقف في التكافل الاجتماعي



أول من أجرى الماء إلى "جبل عرفات" ليلة الوقوف، وغرم عليه جملة كثيرة، وعمر بالجبل مصانع للماء، حيث كان الحجاج يتضررون من عدم الماء.

وقف الدور والخانات على أبناء السبيل والفقراء

وذلك تخفيفاً عليهم من مشقة الطريق ووعثاء السفر، يقيمون فيها ما شاؤوا أن يقيموا، مع إسباغ النفقات وإجراء الأرزاق عليهم من غذاء وكساء وصلات ما داموا مقيمين بها.

وقد انتشرت دور الضيافات والخانات في أرجاء الدولة الإسلامية، ومن هذه الخانات ذلك الخان الذي عمره "الظاهر بيبرس" بـ"القدس"، ووقف عليه أوقافاً للنازلين به من إصلاح نعالهم وأكلهم وغير ذلك، وبنى به طاحوناً وفرناً.

الوقف على تزويج الأيتام والفقراء والجواري

وهذه الأوقاف (أوقاف التزويج) كانت -كغيرها- منتشرة في أرجاء الدولة الإسلامية. وقد ذكرها "ابن بطوطة" (ت ٧٧٩هـ) في رحلته حين نزل "دمشق" فقال: "والأوقاف بـدمشق" لا تحصر أنواعها ومصارفها لكثرتها، فمنها أوقاف للعاجزين عن الحج يعطى لمن يحج عن الرجل منهم كفايته، ومنها أوقاف على تجهيز البنات إلى أزواجهن وهن اللواتي لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن".

وكان الخليفة العباسي "المستنصر بالله" (ت ٦٤٠هـ) يتقصد الجواري اللاتي قد بلغن الأربعين، فيشتريهن له فيعتقهن ويجهزهن ويزوجهن. وقد يتقدم الفتى أو الفتاة إلى قيم الوقف، يطلبان المعونة لزوجهن فيعطيها ما هما بحاجة إليه.

الوقف على إصلاح ذات البين

وهذا الوقف من فرائد الأوقاف النادرة. فقد ذكر أنه كانت بمدينة "مراكش" دار تسمى "دار الدقة"، وهي ملجأ تذهب إليه النساء اللاتي يقع نفور بينهن وبين أزواجهن، فلهن أن يقمن به آكلات شاربات إلى أن يزول ما بينهن وبين أزواجهن من نفور.

وظاهر أن هذه الدار موقوفة على النساء الغريبات أو اللاتي لا أهالي لهن، وذلك خشية أن يستغل زوج المرأة منهن هذه الناحية في زوجته فيظلمها، أو يسيء معاملتها وهو يعلم أن لا ملجأ لها ولا أهل يأخذون بناصرها.

للأوقاف أثر كبير في شتى مجالات الحياة، وأثر كبير -كذلك- في تنمية المشاعر والأحاسيس الإنسانية. ومن آثار الأوقاف،

ذلك الأثر الجليل الذي شمل طبقات المجتمع المسلم كلها، ألا وهو الأثر الاجتماعي الذي ظهرت صورته الكثيرة في تنوع الأشياء الموقوفة وتنوع أغراض واقفيها. وفيما يأتي، ما وقفت عليه من تلك الصور التي تدل على مجتمع متماسك يحب أفرادُه الخير لغيرهم، ويحتسبون ما يقفونه عند الله سبحانه، وتدل في الوقت نفسه على إحساس رهيف وتقدير للمسؤولية الملقاة على عاتقهم تجاه غير المستطيع من المجتمع المسلم.

الوقف على رعاية الأيتام واللقطاء وكفالتهم

رتب "الظاهر بيبرس" (ت ٦٧٦هـ) لأيتام الأجناد ما يقوم بهم رغم كثرتهم. وأنشأ "مظفر الدين كوكبوري" (ت ٦٣٠هـ) ملجأً للأطفال الأيتام -بنين وبنات- الذين فقدوا آباءهم وأمهاتهم، ومن لا عائل لهم، فحفظهم بذلك من خطر التشرد ومفاسده، وزود الملجأ بكل ما يحتاجون إليه من مقومات الحياة، كما عين فيه المشرفات على تربيتهم، وكان يزورهم بين الحين والحين، ويزوجهم حين يبلغون سن الزواج. وبنى للقطاء ملجأً زوده بالمرضعات، فكان كل لقيط يعثر عليه يُحمل إلى هذا الملجأ، فيسلم إلى إحدى المرضعات لتقوم على إرضاعه وتربيته... وبهذا العمل الإنساني الجليل حفظ "مظفر الدين" أرواحاً كان مصيرها الهلاك والموت.

الوقف على أهل الحرمين الشريفين

وتمدنا المصادر التاريخية بنماذج كثيرة من مثل هذا الوقف النبيل؛ فقد وقف "نور الدين محمود" (ت ٥٦٩هـ) ووقفاً كثيرة على سكان الحرمين الشريفين، بل إنه كان يقطع أمراء العرب الإقطاعات حتى يكفوا عن التعرض للحجيج، ووقف وقفاً على المجاورين بالحرمين.

وكان "مظفر الدين كوكبوري" يقيم في كل سنة سبيلاً للحجاج، ويسير معه جميع ما تدعو حاجة المسافر إليه في الطريق، ويسير صحبته أميناً معه خمسة أو ستة آلاف دينار ينفقها بالحرمين على المحاويج وأرباب الرواتب، وله بـ"مكة" -حرسها الله تعالى- آثار جميلة بعضها باقٍ إلى الآن. وهو

وَقَفَ الواقفُ المحسنُ هذه الدارَ لأولئكَ النسوة، ووظف لها نساء يقمن فيها على رعاية النسوة الغاضبات، إلى أن تتصلح الحال وتعود ربة البيت إلى بيتها وزوجها. فما الذي يدل عليه هذا الوقف اللطيف غير "التفنن" في رعاية المحرومين والتماس شوارد السعادة لكل الناس، فحتى الزوجة الغاضبة من زوجها وجدت لها في أوقاف المسلمين ناصراً. فأين المرأة الغربية اليوم؟! أهي أسعد حالاً وأوفر حرية من المرأة المسلمة في جو الإسلام القديم والحديث؟ ألا تدل "دار الدقة المراكشية" هذه على نصره المجتمع المسلم للمرأة حتى آخر المدى.

الوقف على الأرامل الفقيرات وإقامة دور لهن

وكان للولادة اليد العليا في هذا الوقف، حيث كان "بدر بن حسنويه" (ت ٤٠٥هـ) يصرف كل أسبوع عشرين ألف درهم على الفقراء والأرامل.

وبنى "مظفر الدين كوكبوري" داراً للأرامل الفقيرات، اللاتي يتوفى عنهن أزواجهن، وليس لهن من يعولهن من أقارب، حيث أعد الدار بكل ما يحتجن إليه من مأكّل ومشرب وملبس. وكان يتعهدهن بنفسه، فيزورهن ويسألهن عما يحتجن إليه، فكان يأمر بتلبية ما ينقصهن واستكمالها.

الوقف على تكفين الموتى

كان "بدر بن حسنويه" ينفق كل شهر عشرين ألف درهم في تكفين الموتى. وكفن الملك العادل "أبو بكر بن أيوب" (ت ٦١٥هـ) مائة ألف إنسان من الغرباء والفقراء، وذلك في السنة التالية لسنة الغلاء بـ"مصر". ووقف الملك "الظاهر بيبرس" وقفاً على تكفين أموات الغرباء بـ"القاهرة" و"مصر". ولما كان الطاعون بـ"بلاد الشام" سنة (٧٤٩هـ)، كثرت الموتى، وزاد ضمان الموتى جدّاً، فتضرر الناس ولا سيما الصعاليك، فإنه يؤخذ على الميت شيء كثير جدّاً، فرسم نائب السلطنة بإبطال ضمان النعوش والمغسلين والحمالين، ووقف نعوشاً كثيرة في أرجاء البلد.

الوقف على عتق الرقاب

وهذا الوقف من الأهداف الاجتماعية الجليلة للأوقاف؛ إذ لا يخفى أثره على المجتمع كله. ولقد أعتق كثيرون رقيقهم في ظل الإسلام، وقد وقفت أموال كثيرة لأجل ذلك. ومن عجائب هذا الأمر أن "روح بن زنباع" (ت ٨٤هـ) كان كلما

خرج من الحمام يعتق نسمة. والرسول ﷺ كانت آخر وصاته الوصاة بالإماء والعبيد.

روى ابن ماجه بسنده عن أنس بن مالك ﷺ قال: كانت عامة وصية رسول الله ﷺ حين حضرته الوفاة وهو يغرغر بنفسه: "الصلاة وما ملكت أيمانكم". فما أوفى العبيد والإماء حظاً حين تكون الوصاة بهم آخر كلام النبي ﷺ.

وقف الأسبلة

من المنشآت الاجتماعية التي ازدهرت بازدهار الأوقاف إلى حد كبير الأسبلة، وكان الغرض من السبيل تيسير الحصول على ماء الشرب. وقد عني السلاطين بإنشاء أسبلة للناس والحيوانات في مختلف المواضع. "وجرت العادة بأن يلحق السبيل بالمسجد، وأن يكون فوقه في الغالب مكتب لتعليم الأيتام. وفي العصور الماضية كان الحصول على المياه العذبة من المهام الشاقة، لذلك أصبح تسبيل الماء العذب وتسهيل الحصول عليه من وجوه البر التي يعني بها الواقفون، ويقفون على استمرار أداء خدماتها العقارات المختلفة. ومن أجل ذلك أيضاً أشأ الواقفون الصهاريج لملئها بالماء المنقول. فتنص وثيقة وقف "الأمير صرغتمش" على أن يصرف الناظر من ريع الوقف المذكور فيه في كلفة نقل ماء عذب من النيل المبارك في كل يوم إلى المزملة المذكورة، برسم شرب المقيمين بالمدرسة المذكورة والواردين إليها، من ثمن جمال ينقلون عليها الماء وأجرة عمالين عليها.

وقد قام بتسبيل الماء في السبيل المزملاطي الذي يؤدي عمله في الأوقات المحددة في الأيام العادية وفي شهر رمضان، وكانت بعض الأسبلة لا تفتح إلا بين صلاة الظهر والعصر في وقت الحر الشديد. وتمتعت هذه الأسبلة بأوقاف للإنفاق عليها منها، وكثيراً ما اشترط الواقفون في المزملاطي شروطاً جسمية وخلقية خاصة، كأن يكون سالمًا من العاهات والأمراض وبخاصة الجذام، كما اشترطوا أن يسهل على الناس ويعاملهم بالحسنى والرفق، ليكون أبلغ في إدخال الراحة على الواردين صدقة دائمة وحسنة مستمرة.

الوقف على إخراج من حبسه القاضي من المققلين

من وجوه البر والقربات التي تنافس فيها الواقفون، تخلص السجناء الفقراء من الحبس. فقد نصت وثيقة "وقف السلطان حسن" (ت ٧٦٢هـ) على هذا الهدف النبيل، حتى يرجع

المسجونون إلى أهلهم ويتفرغوا لإعالتهم، وقد سمت الوثيقة هذا الوقف بـ"خلاص المسجونين".

الوقف على إفتار الصائمين الفقراء وسحورهم

كان الملك "الظاهر بيبرس" يرتب في أول رمضان بـ"مصر" و"القاهرة" مطابخ لأنواع الأطعمة، تفرق على الفقراء والمساكين. ولما ملك "الأشرف" (ت ٦٣٥هـ) "دمشق"، كانت القلعة لا تغلق في ليالي شهر رمضان كلها، وصحون الحلاوات خارجة منها إلى الجامع والخوانق والربط والصالحية، وإلى الصالحين والفقراء والرؤساء وغيرهم.

الوقف على الحج عن الغير

من أمثلة هذا الوقف أن "بدر بن حسنويه" كان يصرف في كل سنة ألف دينار لعشرين نفس، يحجون عن والدته وعن عضد الدولة، لأنه كان السبب في تملكه.

الوقف على حراسة الأماكن المخوفة

وهذا من فرائد الأوقاف. فقد رتب "نور الدين محمود" الخفراء في الأماكن المخوفة حرصاً وخوفاً على رعيته، وتأميناً لهم على أنفسهم ومتاعهم، بل وزيادة في حرصه على رعيته وسلامتها، جعل في تلك الأماكن المخوفة الحمام الهوادي التي تطلعه على الأخبار في أسرع مدة حتى يكون في موقع الأحداث -إذا حدث شيء- بعد وقوعها مباشرة، بل إنه ربما أتى -أو أتى بعض رجاله- في أثنائها.

وهكذا سمّت مشاعر القوم وأحاسيسهم ومسؤولياتهم، فما أحلى أن نربي مشاعرنا وأحاسيسنا ومسؤولياتنا، ونسمو بها حتى نسمو نحن الآخرين فتسمو الدنيا كلها بنا.

وقف الأواني

وهذا الوقف أيضاً من نوادر الأوقاف وفرائدها. يقول ابن بطوطة في رحلته: "مررت يوماً ببعض أزقة دمشق"، فرأيت به مملوكاً صغيراً قد سقطت من يده صحيفة من الفخار الصيني -وهم يسمونها الصحن- فتكسرت واجتمع عليه الناس. فقال له بعضهم: اجمع شقفها واحملها معك لصاحب أوقاف الأواني. فجمعها وذهب الرجل معه إليه، فأراه إياها فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن. وهذا من أحسن الأعمال؛ فإن سيد الغلام لا بد أن يضربه على كسر الصحن أو ينهره، وهو أيضاً يكسر قلبه ويتغير لأجل ذلك، فكان هذا الوقف جبراً للقلوب. جزى الله خيراً من تسامت همته في

الخير إلى مثل هذا".

الوقف على من يقرأ القرآن عن الميت عند قبره

فقد وقف أحد الملوك -رغبة في الثواب الدائم- أوقافاً عظيمة على من يقرؤون سبع القرآن كل يوم عند قبره. ووقف أحد ذوي اليسار وقفاً على من لا يحفظ ويقرأ من سورة الكوثر إلى الخاتمة عند قبره.

الوقف على إعارة الحلبي

انتشر هذا الوقف في معظم البلاد الإسلامية، وأم المؤمنين حفصة (ت ٤٥هـ) رضي الله عنها، هي أول من وقف مثل هذا الوقف. فقد ابتاعت حلياً بعشرين ألفاً ووقفته على نساء آل الخطاب. وبهذا الوقف يظهر الفقراء في أعراسهم في صورة الأغنياء الذين لا ينقصهم شيء مما يحتاجه العرس.

وقف الضيفان

يقول "محمد كرد علي" (ت ١٣٧٢هـ): إن أول من اتخذ داراً للضيافة "الوليد بن عبد الملك"، ثم انتشرت بعد ذلك دور الضيافة في أرجاء الدولة الإسلامية، حتى كانت بعض المدن ملأى بدور الضيافة. فقد ذكر "ابن كثير" أن الخليفة العباسي "المستنصر بالله" أنشأ بكل محلة من محال "بغداد" دار ضيافة للفقراء، لا سيما في شهر رمضان.

وبنى "مظفر الدين كوكبوري" داراً للضيافة في "إربل"، وفتح أبوابها لكل وافد إلى "إربل" ولكل عابر سبيل يقيم فيها ما شاء له أن يقيم، يتناول فيها طعامه وشرابه بلا مقابل، حتى كان عصره أبهى عصور مدينة "إربل" وأزهاها. وألحق "مظفر الدين" بالدار المطابخ لإعداد الأطعمة والأشربة للضيوف، وخصص للدار مائة ألف دينار سنوياً تنفق لهذا الغرض. فكان كل وافد يقيم في الدار ما شاء له أن يقيم، فكان يجد الأمن والطمأنينة على نفسه وماله. ولم يكتف "مظفر الدين" بهذا، وإنما كان يدفع لكل ضيف فقير يعزم على مغادرة "إربل" نفقة لسفره، كل حسب احتياجاته، وكان -رحمه الله- ينفق كل عام عشرة آلاف دينار على السبيل. ■

(٥) محقق تراث / مصر.

من تضاريس الجلال

لم يَحُلْ لي من بعد وجهك منظرٌ
 طال الزمانُ، فقصرت أيامه
 آتي إليك يلفني حبلُ الأسي
 فأتوف حولك، أستحيل قصيدةً
 يطوى الزمانُ قديمه، وجديدهُ
 فأرى النبيَّ جلاله، ومهابهُ
 وبلالُ يعلنُ للبطاحِ نشيدهُ
 فتهشُّ مكةُ للنشيدِ يشدها
 وأطلُّ أقرأ في شموخك لوحةً
 شاخ الزمانُ، وأنت في حللِ الصبا
 نهرُ البياضِ إلى يديك مصبهُ
 تعبتُ خطي الأحبابِ وهي مشوقةٌ
 تغشاك من حُللِ السوادِ مهابةُ
 فكأنك العين التي تحتفها
 قطعُ الرُحامِ، الصبحُ، أثوابُ الهدى
 صوتُ المؤذنينِ والقناديلِ التي
 من مقلتيك يهلُّ مُزناً عقيدةُ
 وعلى مآذنك الشموخُ محلَّقٌ
 ستظلُّ في العينين أبهى صورةً
 وبظلُّ يُعذِرُ بعضُ من قد قصروا

كلُّ الدُّنا عَرَضٌ، وأنت الجوهرُ
 وأمام وجهك كلُّ طولٍ يقصُرُ
 ومدامعي من حُرقتي تتحدَّرُ
 في كلِّ أفقٍ للروائعِ تبحرُ
 فتلوحُ من كلِّ الجهاتِ الأعصرُ
 وأرى المبادئِ كلَّ يومٍ تُنصرُ
 اللهُ من كلِّ الخلائقِ أكبرُ
 طهرُ الكلامِ ومستواه المبهرُ
 أبعادها مثلُ الثُّقي لا تُحصِرُ
 تزهو فلا تبلى، ولا تتغيرُ
 بالحبِّ والشوقِ المغررِ يزخرُ
 ووقفتَ ترقبُ ركبهم لا تفتُرُ
 لغةً من النمطِ المحكِّ تسحرُ
 أهدأبها، وجبالُ مكةَ محجرُ
 الحِجرُ، زمزمُ، المقامُ، المنبرُ
 خشعتُ أكفهمُ إذا ما كبروا
 طينُ القلوبِ به نديٌّ مثيرُ
 والمجدُ من أطرافِ ثوبك يُظفرُ
 في القلبِ تورقُ بالضياءِ وتزهُرُ
 ومتى يقصُرُ بعضنا لا يُعذِرُ

(*) شاعر من المملكة العربية السعودية.

حول مفهوم الحضارة

والحاضر: خلاف البادي. وفي الحديث: لا يبيع حاضر لباد، الحاضر: المقيم في المدن والقرى، والبادي المقيم بالبادية. والحضارة بكسر الحاء: الإقامة في الحضر، عن "أبي زيد". وكان "الأصمعي" يقول: الحضارة بالفتح. قال "القطامي": فمن تكن الحضارة أعجبتة فأبي رجال بادية ترانا. ولكن اللفظ لم يبق محصوراً في دلالة اللغوية الأولى، بل أصاب من التطور ما جعله ينتقل من الدلالة اللغوية إلى الدلالة الاصطلاحية الواسعة. وقد كان ابن خلدون، من الذين نقلوا الكلمة من مجال إلى مجال حين جعل الحضارة "غاية للبادوة". وعرف الحضارة في

إن كل خطاب لا يحدد مصطلحاته بدقة، رهين بأن يصاب بالتشويش وعدم الدقة في الإبلاغ. وما يقع أحياناً من اضطراب في التواصل، مردّه في معظم الأحيان إلى عدم الرؤية الموحدة للدلالة المصطلحية. ومن هنا صار لزاماً على كل خطاب يهدف إلى الوضوح في الإبلاغ وتحقيق الغاية، أن تتسم مصطلحاته بتحديدات دقيقة مصنونة عن المجاز كما يقول المناطقة. وأول ما يواجهنا -في مقالنا هذا- من مصطلحات، مصطلح الحضارة. تجعل المعاجم العربية الحضارة مقابل البداوة. فجاء في لسان العرب: الحضر: خلاف البدو،

إ



"المقدمة" بأنها: "التفنن في الترف، واستجادة أحواله، والكلف بالصنائع التي تؤنق من أصنافه وسائر فنونه". وفي خضم التطور الذي شهدته كلمة الحضارة، صارت من أشد المصطلحات تعقيداً، نظراً لتباين التعاريف التي قدمها العلماء لهذه الكلمة، سواء أ عند العرب والمسلمين أم عند الغربيين. بل إننا نجد تداولاً في الغرب لكلمتين تتقاطع دلالاتهما أحياناً، وهاتان الكلمتان هما "Culture" "Civilisation"، في حين تشيع عند العرب كلمات ثلاث هي "الحضارة" و"المدنية" و"الثقافة". وقد كان لعلماء الأنتروبولوجيا

المعاصرين دور في تداول هذه الكلمة الأخيرة وإعطائها دلالة شمولية.

نظرة الغرب إلى الحضارة

وإذا كان مفهوم الحضارة مقياساً لمستوى الإدراك وعنواناً على معطيات الأمم والشعوب، فإننا نجد جملة من التعاريف منها: ١- أولى التعاريف تجعل الحضارة مرادفة لمصطلح المدنية؛ فالحضارة مدنية، والمدنية حضارة. ومن هنا، فإن أولئك المتخلفين عن أنماط الحياة المدنية من بدو أو قبائل من الأدغال، غير متحضرين وإن يكن عندهم مستوى من فكر أو سلوك.

وأصحاب هذا الرأي ينظرون إلى الاشتقاق اللغوي لكلمة "Civilisation"؛ فهذه الكلمة مشتقة من الكلمة اللاتينية "Civilis"، أي المدني أو المواطن في المدينة، ثم استعملت مجازاً لتدل على عملية اكتساب الصفات المحمودة، لتطور بعد ذلك وتصبح معبرة عن حالة الرقي والتقدم لدى الأفراد والجماعات. والمدنية أو الحضارة بهذا المعنى، هي الخروج من الحالة البدائية إلى حالة التمدن.

٢- ويروي "ول ديورانت" صاحب "قصة الحضارة"، أن الحضارة نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة في إنتاجه الثقافي، وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق، لأنه إذا ما أمن الإنسان من الخوف، تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعده لا تنفك الحوافز الطبيعية

حضارة الإنسان تقتضي
قاعدة أساسية من التحرر
الحقيقي الكامل للإنسان
ومن الكرامة لكل فرد في
المجتمع، ولا حرية في الحقيقة
ولا كرامة للإنسان -مثلاً
في كل فرد من أفراد- في
مجتمع بعضه أرباب يشرعون،
وبعضه عبيد يطيعون.

تستهزه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها.

من هنا يرفض "ديورانت" التفسير الذي يخرج البدو وقبائل الأدغال من دائرة الحضارة، ويرى أن "الهمجي" هو أيضاً متمدن بمعنى عام من معاني المدنية، لأنه يعني بنقل تراث القبيلة إلى أبنائه، وما تراث القبيلة إلا مجموعة الأنظمة والعادات الاقتصادية والسياسية والعقلية والخلقية التي هذبها أثناء جهادها، في سبيل الاحتفاظ بحياتها على هذه الأرض.

٣- وذهب فريق من العقلايين إلى

أن الحضارة مرادفة للعقل نفسه، إذ هي في أحسن الأحوال ثمرات العقل، في حين قال آخرون: إن الحضارة هي الاقتصاد.

وتعريف الحضارة عند "وليم هاووز"، هي كل ما يساعد الإنسان على تحقيق إنسانيته.

٤- وربط "أرنولد توينبي" الحضارة بالكنيسة الكاثوليكية، مدعيًا أن الحضارة الغربية هي وحدها التي تحافظ على "الشرارة الإلهية الخلاقة"، وهي وحدها القادرة على أن تؤول إلى ما آلت إليه سابقاتها. وقد حدد معالم الحضارة بقوله: "إنها حصيلة عمل الإنسان في الحقل الاجتماعي والثقافي، وهي حركة صاعدة، وليست وقائع ثابتة وجامدة، إنها رحلة حياتية مستمرة لا تقف عند مينائها.

ويخالف "رجاء كارودي" ما ذهب إليه "توينبي" عن خلود الحضارة الغربية المسيحية في كتابه "حوار الحضارات"، ويؤكد أطروحته تلك ويزيدها بياناً في كتابه "وعود الإسلام". فهو يبدأ بهذه المصادرة = الغرب عرض طارئ.

ويتحدث عن الحضارة الغربية قائلًا: "وأنا أطلق عبارة "الشر الأبيض" على هذا الجانب من الدور المشؤوم الذي نهض به الإنسان الأبيض في التاريخ.

وإذا تجردنا عن الحكم العرقي المسبق القائل بتميز الإنسان الأبيض، وجدنا أن منابع الغرب (الإغريقية والرومانية والمسيحية) إنما ولدت في آسيا وإفريقية. وأن عصر النهضة -وهو ليس حركة ثقافية وحسب، بل ولادة

مواكبة أنجبت الرأسمالية والاستعمار - قد هدم حضارات أسمى من حضارات الغرب، باعتبار علاقات الإنسان فيها بالطبيعة وبالمجتمع وبالإلهي، بدل أن يكون ذروة الإنسانية". ولهذا يدعو "كارودي" إلى "حوار الحضارات"؛ إذ بهذا الحوار وحده، يمكن أن يولد مشروع كوني يتسق مع اختراع المستقبل، وذلك ابتغاء أن يخترع الجميع مستقبل الجميع.

وقبل "كارودي" قام الألماني "أوزوالد شبنكلز"، بالتبشير بانهييار الحضارة الغربية في كتابه "انهيار الغرب"، الذي أصدره عقب الحرب العالمية الأولى. وأما "ألكسيس كاريل"، فيتحدث عن الحضارة الغربية المعاصرة في كتابه "الإنسان ذلك المجهول" قائلاً: "إن الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب، لأنها لا تلائمنا، فقد أنشئت دون أي معرفة بطبيعتنا الحقيقية، إذ إنها تولدت في خيالات الاكتشافات العلمية، وشهوات الناس وأوهامهم ونظرياتهم ورغباتهم، وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا، إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا".

نظرة المسلمين المعاصرين إلى الحضارة

وقد اجتهد المسلمون المعاصرون في الاهتمام بالحضارة وتقديم تعريف لها ومعالجة قضاياها. ومن هؤلاء "مالك بن نبي" الذي عني بالقضايا الحضارية ومشكلاتها، وأصدر في هذا المجال سلسلة "مشكلات الحضارة". والحضارة عند "مالك بن نبي" تظل مرتبطة بالوحي، يقول في "شروط النهضة": "فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة الوحي يهبط من السماء، ويكون للناس شرعة ومنهاجاً... فكأنما قدر للإنسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة، إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية".

وقد سلك "سيد قطب" هذا المنحى، منتهياً إلى أن الإسلام هو الحضارة. إذ مفهوم الحضارة عنده مرتبط بالتححرر الكامل لقوى الإنسان وطاقته، وذلك أمر لا يتحقق إلا بالإسلام. يقول "سيد قطب": "حين تكون الحاكمة العليا في مجتمع لله وحده، متمثلة في سيادة الشريعة الإلهية، تكون هذه هي الصورة الوحيدة التي يتحرر فيها البشر تحرراً كاملاً وحقيقياً من العبودية للبشر، وتكون هذه هي "الحضارة الإنسانية". لأن حضارة الإنسان تقتضي قاعدة أساسية من التححرر الحقيقي الكامل للإنسان ومن الكرامة لكل فرد في المجتمع، ولا حرية في الحقيقة ولا كرامة للإنسان - ممثلاً في كل فرد

من أفرادها - في مجتمع بعضه أرباب يشرعون، وبعضه عبيد يطيعون". ثم يقول: "حين تكون إنسانية الإنسان هي القيمة العليا في مجتمع، وتكون الخصائص الإنسانية فيه هي موضع التكريم والاعتبار، يكون هذا المجتمع متحضراً".

ومن خلال هذه المفاهيم والتصورات عن الحضارة، تتضح المعطيات الأساسية الكامنة وراء هذه التعاريف. فكل يسعى لإيجاد الرابط الوثيق بين تصوره عن الكون والحياة والإنسان، وبين ما يسمى "الحقيقة الحضارية"، ليصل إلى نتيجة مؤداها تأكيد حضارية، فكره وممارسته مغلباً عليهما الطابع الذي يريد.

غير أن الحضارة اصطلاحاً، ينبغي كما يقول "محمد علي ضناوي": "إن تحدد بمعزل عن الأطر الفكرية طالما ارتضينا أن تكون الحضارة مصطلحاً، ومن هنا ينبغي التفرقة بين الحضارة والمبادئ. إن الحضارة ليست المبادئ والمفاهيم، ولكنها حصيلة تطبيق تلك المبادئ والمفاهيم. إن المبادئ والمفاهيم إذا لم تمارس تغدو تراثاً وكلاماً مسطوراً، ولا يصح تسميتها "حضارة" حتى تترجم إلى أي واقع يحياه الناس ويسود المجتمع".

ومن هنا في كتابه "مقدمات في فهم الحضارة الإسلامية" قدم "محمد علي ضناوي" للحضارة التعريف التالي: "الحضارة هي تفاعل الأنشطة الإنسانية لجماعة ما، في مكان معين، وفي زمن معين أيضاً، ضمن مفاهيم خاصة عن الكون والحياة والإنسان".

الإنسان والزمان والمكان، والعلاقات الموحدة بين هذه العناصر الثلاثة هي إذن مكونات الحضارة. وقد كان هذا هو المنهج الذي اتبعه "أبو الأعلى المودودي" حين عرّف الحضارة مطلقاً بأنها: "إنما هي نظام متكامل يشمل كل ما للإنسان من أعمال وآراء وأعمال وأخلاق في حياته الفردية أو العائلية أو الاجتماعية أو الاقتصادية السياسية".

وعرّف الحضارة الإسلامية تحديداً بأنه: "مجموعة المناهج والقوانين التي قررها الله ﷻ لكل هذه الشؤون والشعب المختلفة لحياة الإنسان"، وهي المعبر عنها بكلمة "دين الإسلام أو الحضارة الإسلامية". ■

(*) رئيس تحرير مجلة "المشكاة" / المغرب.



مؤتمر

السراج النبوي ينير درب البشرية الحائرة

شخصية رسمية ودينية وشعبية معتبرة. أما عن ضيوف الداخل التركي، فقد تجاوزوا الألف، ما بين رؤساء الهيئات الدينية الكبرى، وأساتذة وعمداء لكليات الإلهيات والعلوم الشرعية، وأئمة ووعاظ ووزارة الأوقاف والشؤون الدينية، وثلة مباركة من جهابذة وشيوخ المدارس الشرقية الدينية، إلى جانب شخصيات سياسية متنوعة، وطلبة وطالبات جامعيين، وشعب محب عاشق متيم بالحبيب المصطفى ﷺ، فضلاً عن طواقم إعلامية محلية ودولية عديدة. ومضيف هؤلاء وضييفهم الأكبر الحاضر بروحه الغائب بشخصه فضيلة الأستاذ العلامة محمد فتح الله كولن حفظه الله ورعاه.

الحدث: مؤتمر دولي عالمي، وسط حضور حاشد ومعنويات محلقة بعنوان: "السراج النبوي ينير درب البشرية الحائرة"، استنفر فيه العلماء الأجلاء المدعوون طاقتهم،

الزمان: ٥-٦ مايو ٢٠١٢.

المكان: في أقصى الجنوب التركي، وتحديدًا في مدينة "غازي عنتاب"؛ مسقط رأس العلامة المحدث "بدر الدين العيني" صاحب كتاب "عمدة القاري في شرح صحيح البخاري"، ومنشأ كثير من علماء الدين المشاهير.

المضيف: الشقيقتان "حراء" الغراء، و"يني أوميد" (الأمل الجديد)، في ثاني لقاء يجمع بينهما في هدي النبي ﷺ، والرابع على مستوى المؤتمرات بشكل عام.

الضيوف: من ربوع الأرض جاؤوا، من كل حذب وصوب، ومن كل فج قريب أو عميق، من أكثر من ستين دولة توافدوا كما يتوافد الحجيج لأداء الشعائر المقدسة، هذا عن ضيوف الخارج التركي، وقد بلغ عددهم أكثر من ثلاثمائة



نوزاد صواش، المشرف العام على مجلة حراء/تركيا.



د. أرجون جابان، رئيس تحرير مجلة بني أوميد/تركيا.



وحيد الدين خان، رئيس المركز الإسلامي بـنيو دلهي/الهند.



أ.د. محمد كورمز، رئيس الشؤون الدينية/تركيا.



إبراهيم صالح الحسيني، رئيس المجلس الإسلامي/نيجيريا.

ليناقشوا أهم المشكلات الاجتماعية التي تتعرض لها الإنسانية، وأبرز المحاور الحياتية التي تمس حياة المسلم في ضوء الهدى النبوي الشريف.

الفعاليات:

مقتطفات من اليوم الأول

لاقت كلمة الأستاذ "وحيد الدين خان" العلامة الهندي والصوفي الداعية الشهير في الجلسة الافتتاحية، صدى مؤثراً في قلوب السامعين والحاضرين، لا سيما وأنه في السابعة والتسعين من عمره... حيث صعد المنصة متوكئاً على بعض تلامذته، وبلغ الناس كلمته مشفوعة بدموعه ونبرات صوته التي تخنقها العبرات. وقد أعرب في كلمته عن ضرورة استكشاف الاتجاهات الحديثة في السنة النبوية، ووجوب الارتكاز على الأسس القرآنية والنبوية عند التصدي لحل مشكلاتنا الاجتماعية. ثم أشاد بدور تركيا ومكانتها الفريدة بين الشرق والغرب، باعتبارها نقطة ارتكاز لتنوع الحضارات والثقافات، مما يجعلها الأقدر من أي دولة أخرى على نقل الرسالة الإسلامية بصورتها الحضارية. وبين سنن الزوائد وسنن الهدى أشار الأستاذ الدكتور "محمد كورمز" رئيس الشؤون الدينية التركية، أنه في الوقت الذي نجح فيه المسلمون في كثير من سنن الزوائد، فشلوا في سنن الهدى، ومن ثم دعا إلى وجوب مراجعة المناهج الدراسية في الجامعات والمدارس. وأكد على أن الهدى النبوي لم يفتأ يواجه العلل والأمراض الاجتماعية، وذلك بمعالجة أسبابها من جذورها، والتصدي لآثارها ونتائجها، ومن أهم تلك المشكلات التي جاء الإسلام لحلها مشكلة العنصرية. ثم نحى باللائمة على من يريدون فهم الإسلام بغير القرآن، أو بغير الرسول ﷺ، متمثلاً في سنته السنية وهديه المبارك. ويبن أن مثل هذا الصنيع، من شأنه أن ينشئ جداراً فاصلاً بين القرآن والرسول ﷺ.

كما أعرب فضيلة الشيخ الشريف "إبراهيم صالح الحسيني" رئيس هيئة الإفتاء ورئيس المجلس الإسلامي بنيجيريا، عن شكره وتقديره لانعقاد هذا المؤتمر فهو "مؤتمر قد جاء في وقته، وعليه تعلق الأمة آمالاً كثيرة، فليس لها من منقذ سوى ورثة الأنبياء، الذين يتمثلون رسول الله سلوكاً ومظهرًا، لأنه السراج المنير، وهو قدوة بذاته وأفعاله. وكُمل الرجال هم من يصطحبون حاله معهم في الليل والنهار"، ثم عبر عن تقديره للمربي الفاضل الأستاذ محمد فتح الله كولن، لثريته جيلاً من الشباب تربية نموذجية، لكل من أراد أن يعمل بقلب خالص... وأشاد سماحة الأستاذ الدكتور "عبد الكريم الحصاونة" مفتي المملكة الأردنية الهاشمية، بتركيز المؤتمر على الجانب الاجتماعي في الهدى النبوي، لأنه الجانب الأساس الذي ركز عليه الإسلام في مواضع كثيرة من الكتاب والسنة.

وبهذا المقطع المترجم من قصيدة بعنوان: "وردة المدينة"، والتي نظمها فضيلة العلامة الأستاذ محمد فتح الله كولن ختم كلمته، حيث يقول فيها: يا

وردة أحالت الصحراء القاحلة إلى جنان، أشرفي على قلبي بألوانك الساحرة...
 آن الأوان، لتكفكفي عيوني الدامعة، يا وردة أحالت الصحراء القاحلة
 إلى جنان... والوردة الحمراء في الأدبيات الصوفية التركية ترمز إلى الحبيب
 محمد ﷺ. وقد رحب في مطلع كلمته بالسادة الحضور، وأعرب عن أسفه
 لعدم قدرته على المشاركة، كما هنا كلاً من المجلتيين العزيزتين على تنظيم
 هذه المؤتمرات العالمية، وتمنى لهما دوام التوفيق والنجاح. وفي ثنايا الكلمة
 بين أن مفخرة الإنسانية عليه أفضل الصلاة والتسليم: "هو باني الإنسانية من
 جديد، ولا يزال، وسيبقى بانيًا لها في كل آن؛ في أمسها ويومها وغداها. وكما
 بدل في عصره بحملة واحدة، وبنفخة واحدة، مفاهيم ضالّة، وسلوكيات
 غير إنسانية، وانحرافات سوء الأخلاق والأمزجة المغروسة في الطبائع من
 آلاف السنين، فسيُسمع صوته -يقينًا وحقًا- للجموع المنفلتة المنفرط عقدها
 اليوم، وسيضبطهم بضوابطه إن عاجلاً أو آجلاً، وسيظهر قوة رسالته".

وفي المحاضرة الافتتاحية لفضيلة الأستاذ الدكتور "علي جمعة" مفتي
 الديار المصرية، أوضح أن آيات القرآن الكريم وأحاديث السنة النبوية
 المطهرة، قد اشتملا على أكثر من ٩٥٪ في الأخلاق والعقيدة، وأن النسبة
 الضئيلة الباقية اشتملت على الأحكام الشرعية والفقه مع أهمية الشريعة، وأنه
 لا حياة بدونها، مما يبين لنا المنهج الذي ينبغي أن نسير عليه، والمتمثل في
 قوله ﷺ: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق". وأشار فضيلته إلى أن تلمس
 المنهج النبوي واستنباط الحلول التي يسميها العلماء "أمهات الأبواب"، هو
 السبيل القويم في حل المشكلات الاجتماعية... ومن ثم فعلينا التوجه إلى
 هذا المنهج النبوي والبحث عن حلول لمشكلاتنا فيه... ثم أخذ يتناول
 بعض هذه المشكلات وسبل حلولها وفق الهدي النبوي. كما أوضح أن كل
 المؤتمرات التي عقدت من أجل البحث عن المشكلات وحلولها، آلت إلى
 أن المشكلة الكبرى تكمن في التربية والخلل فيها. وختم كلمته بالدعوة إلى
 العمل الصحيح والأمل الفسيح، لأنه بالأمل وحده فسوف نتحول إلى ظاهرة
 صوتية، وسوف نخسر كثيراً من أرضنا الفكرية كل عام.

"في مدينة الثقافة والحضارة والعلم والعرفان، أرحب بكم أعزائي عشاق
 الحبيب المصطفى ﷺ... بهذا الوصف الحبيب إلى نفوس الأتراك، وبهذا
 الاعتزاز العلمي والعرفاني بمدينة "غازي عيتاب"، رحب الأستاذ الدكتور
 "علي باردك أوغلو" رئيس هيئة الشؤون الدينية السابق، بضيوفه من كل
 ربوع الأرض، ثم ذكر في تقديمه للجلسة الأولى التي عنوانت بـ"عالمية
 المنهج النبوي وربانيته"، أن المؤمن في حاجة ماسة إلى تنزيل القرآن الكريم
 وهدي النبي ﷺ في قلبه، ومن ثم تمثله في حياته وواقعه ومستقبله... وأنه
 لا حل لمشكلاتنا الحياتية والاجتماعية بدون هذا التنزل والتمثيل. وببلاغته
 المعهودة وبيانه المؤثر، عبر فضيلة الأستاذ الدكتور "فتححي حجازي" عن
 الأجواء النورانية التي تحف المؤتمر، ثم بين في كلمته التي عنوانها: "مكانة



أ.د. علي جمعة، مفتي الديار المصرية.



أ.د. عبد الكريم الحصاصنة، مفتي المملكة الأردنية الهاشمية.



أ.د. فتححي حجازي/مصر.



د. أحمد البوكيلي/المغرب.



أ.د. عبد الرزاق قسوم/الجزائر.



أ.د. علي باردك أوغلو، رئيس الشؤون الدينية التركية السابق.



أ.د. محمود السرطاوي/الأردن.



الشيخ خليل النحوي/موريتانيا.



الرسول الأسوة في تنزيل وتمثل حقيقة الوحي"، أن علاقة الرسول بالوحي علاقة استمداد واستمرار، وأن نور النبي المعنوي المنبعث منه والممتد إلى صحابته ثم إلى ورثته من الدعاة، على بصيرة في كل زمان ومكان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، يشي بعظيم منزلته التي أشار إليها القرآن. وأنه ﷺ مثل الوحي بين الناس في جميع مناحي الحياة؛ فكان قرآنًا يمشي بينهم. وعن دعوى شمولية المنهاج النبوي وعالميته وربانيته، وجد فضيلة الدكتور "عبدالرزاق قسوم" في هذه الكوكبة، وتلك الفسيفسائية من الحضور التي تصنعها وحدة الإسلام، بقيادة المصطفى ﷺ خير دليل على صدق هذه الدعوى. وأشار في عرضه إلى أن القيم التي جاء بها محمد ﷺ هي قيم عالمية، لأنه نبي تنطق الإنسانية على لسانه، وهو أعظم مصلح، وكل محاولة للإصلاح بدونه ستبوء بالفشل. وهذا ما أكد عليه كثير من كتاب الغرب ومفكرهم المنصفين، من أمثال القسيس السويسري "هانس كونج" في كتابه "إلى محمد أيتها الإنسانية". ومن ثم ولكي نبدأ بتحقيق المنهاج النبوي في التربية، علينا العناية بالقدوة صعودًا ونزولًا، وإشاعة الحب في التعامل بعد أن نخلص هذه القيمة العالية من دنس المنفعة والمصلحة، وتحصين الذات بالحصانة المحمدية، وخاصة آفة فقد المناعة الأخلاقية والوطنية.

وعزا الأستاذ الدكتور "عثمان كونر" في الجلسة الثانية، مشكلة الفقر على المستوى الفردي في زماننا إلى أسباب عديدة من أهمها: الكسل والتبذير والبخل. ونفى أن تكون قلة الموارد، أو النقص في بعض النعم التي أنعم الله بها على الإنسان، عاملاً من عوامل الفقر على المستوى الاجتماعي، وإنما سوء توزيع هذه الموارد، والظلم والجور في استخدامها، وغياب العدالة الاجتماعية، هو السبب الرئيسي في هذا... واستشهد على ذلك بقوله: "إن ما تنفقه بعض الدول على إطعام الحيوانات وفي التجميل، يمكن أن يطعم أفريقيا كلها". ثم بين أن العدالة الاجتماعية كانت أساساً من أسس الهدى النبوي، كما أن الإسلام قد صاغ مجموعة من الأوامر والنواهي تؤدي في مجملها إلى نظام اقتصادي عادل، كتحريم الربا وفرض الزكاة والكفارات، والنهي عن الإسراف والتبذير والكسل، والحض على العمل والإنتاج والتدبير، والصدقات والتبرعات. وحول مشكلة الجهل أشار الدكتور "عبد الحميد أبو سليمان" الأمين العام لمعهد الفكر الإسلامي، إلى أن الجهل إذا حلت مشكلته حلت كل المشاكل، والجهل يقابله العلم الذي يؤدي إلى العمل، وأي جهل لا يقابله علم يؤدي إلى عمل فهو جهل أيضاً. كما رأى أن أي تغيير لا يستند إلى عقيدة صلبة فهو فقاعة، وأن أهم أنواع الاقتصاد في عصرنا هو اقتصاد المعرفة، وذكر بعض تجارب معهد الفكر الإسلامي في هذا الصدد. كما دعا إلى وجوب تغيير الخطاب من الشدة والقهر إلى اللين والرحمة عملاً بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ (البقرة: ١٦٥)، ثم ختم حديثه بقوله: "العلم للأخلاق والجهل لقلّة الأخلاق". وختم الأستاذ

"النحوي"، أن الآية المدخل في هذا الموضوع قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُجْزَوْنَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (الحشر: ١٩).

فالآية لم تحدد بم نؤثر ومن نؤثر، وتركت الباب مفتوحاً، وهذه إشارة عظيمة من إشارات القرآن. كما أشار إلى أن الإيثار قيمة مركبة، وهو أعلى مراتب الإيمان. ثم عدد صوراً من خلق الإيثار في حياة النبي ﷺ الذي كانت حياته كلها إعلاء لهذه القيمة.

وفي عرض متميز أثيرى به الجلسة الرابعة بعنوان: "البشرية الحائرة ودور العالم على ضوء السراج النبوي"، تساءل الدكتور "محمد باباعمي": "هل لدينا الجرأة أن نتبع العالم المرشد المري؟" وبعد أن استعرض مظاهر حيرة البشرية، وتساءل عن المخرج لها من تلك الحيرة، أبان في ختام عرضه عن الدور المنوط بالعالم بقوله: "وليس المطلوب من العالم أن يصف الدواء، ويكتب عنه، ولا أن يتحدث عن السراج ويفتخر به، وإنما عليه واجب آخر هو النزول إلى الأرض، وحقن المريض بالجرعات اللازمة من الدواء، وحمل السراج إلى المناطق المظلمة؛ من مدرسة، وجامعة، وبرلمان، ومخبر، وقناة، وسوق... وغيرها. وهذا ما يمكن

"جنيد كوكجة" الجلسة واليوم الأول كله بحديثه عن مشكلة العنصرية والتفرق. وأشار في حديثه عن هذه المشكلة إلى أن الفرقة حس شيطاني واضح، قال تعالى على لسان إبليس: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (الأعراف: ١٢)، وأوضح أن الوحدة والتوحد تحوّل أي مجتمع إلى جنة، وأن الفرقة والاختلاف تحوّل أي مجتمع إلى جهنم، ومن ثم كان الإسلام من خلال القرآن الكريم وهدى النبي ﷺ يلح على قضية الوحدة والتوحد ونبذ الفرقة والتعصب والعنصرية، حفاظاً على سلامة المجتمع وتماسكه، وسعادة أفرادها وهناءتهم.

مقتطفات من اليوم الثاني

أكد الأستاذ الدكتور "عبد الناصر أبو البصل" في عرضه الشائق المشفوع بالوسائل التكنولوجية الحديثة، أن الأخوة الدينية والإيمانية رابطة وثيقة بين المسلمين أينما كانوا، وبها بطلت ثلاث عصبيات: النسب، والحلف، والوطن. وأن نموذج المؤاخاة في العصر النبوي قد انبنى على الإيمان، وتألف القلوب، والعمل الصالح، والتربية النبوية. كما بين أننا في حاجة ماسة إلى المؤاخاة في هذا العصر، وأنا نستطيع أن نستنبط من النموذج النبوي، بما يتواكب مع روح العصر ووفق وسائله الحديثة، وضرب أمثلة متعددة لذلك. وحول خلق الإيثار في المنهاج النبوي ذكر الشيخ "خليل





الأستاذ محمد فتح الله كولن، على أن يفعلوا شيئاً ما في تبليغ رسالة الإسلام بصورته الحضارية.

أ.د. محمد كورمز: يتداعى إلى ذهني عند رؤية هذه الكوكبة المباركة من العلماء الأجلاء، اللقب الذي أطلقه الرحالة التركي الشهير "أوليا شلبي" على مدينة "غازي عيتاب"؛ "بخارى الصغرى"، لكثرة ما كان بها من علماء في عصره.

أ.د. علي جمعة: مجلس علم تحفه الملائكة.

أ.د. فتححي حجازي: إن سيدنا أبا أيوب الأنصاري قد استقبل النور الخالد مفخرة الإنسانية الحبيب محمد ﷺ في بيته في المدينة المنورة، وهو اليوم يستقبل أحباب الحبيب المصطفى علماء الأمة وورثة الأنبياء في تركيا، وذلك فضل الله على عباده.

أ.د. علي كوسة: هذا الحشد ذكرني برحلة "مالكوم إكس" إلى الحج، وكيف غيرت تلك الرحلة قناعاته الخاطئة عن الدين الإسلامي عندما رأى الألوان والأجناس المختلفة جنباً إلى جنب في هذه الرحلة المباركة دون تمييز أو تفرقة.

الشيخ خليل النحوي: هذه الوجوه القادمة من أكثر من

ستين دولة، تقدم تعريفاً آخر لغار حراء. ■

أن نسميه "تحويل الفكر إلى فعل"، و"تجسيد العلم بالعمل". كما شاركه التميز كل من الأستاذ الدكتور "محيط مرت" والدكتور "رشيد هايلاماز" في عرضيهما المعنونين بـ "مدرسة أصحاب الصفة ودورها في البناء الحضاري"، و"مكانة الصديقة عائشة في فهم الهدى النبوي"، وأبدى الدكتور "رشيد" تأثراً بالغاً في ختام عرضه الموضوعي عن الصديقة بنت الصديق، ترققت معه دموعه بسبب المحاولات البغيضة للتقليل من مكانة أم المؤمنين والغضب من شأنها.

ثم توالى الجلسات الخامسة والسادسة، طرحت فيهما عديد من الموضوعات الهامة أبرزها "سعادة الإنسان وأمنه وكرامته في الهدى النبوي، وملامح المجتمع المثالي في المنهاج النبوي" الذي عرضه الأستاذ الدكتور "أحمد البوكيلي" من خلال نموذج خطبة الوداع. بالإضافة إلى توقيع السلف الصالح وعلماء الأمة وأئمة المذاهب وتعظيم الشعائر الإسلامية. ثم جاءت الجلسة الختامية التي عرضت عرضاً سريعاً موجزاً لأهم ما ورد في المؤتمر بشكل عام.

بعض الانطباعات

وحيد الدين خان: لدي إيمان عميق وقناعة راسخة وشعور بالتفاؤل بقدرة الحاضرين والمشاركين ومن بينهم تلامذة

(*) كاتب وباحث مصري.



السلطان سليم الخادم الأمين

أصحابها أم لا؟! فذهب الآغا على الفور وشرع مع أعوانه بتفتيش الجنود واحداً واحداً، ثم بتفتيش الأشجار كذلك واحدة واحدة... ولكنه لم يعثر على شيء قط. وعندما أخبر السلطان بالأمر، افتّر ثغره عن ابتسامه، رفع يديه إلى السماء وراح يدعو قائلاً: "أحمدك اللهم أن وهبتي جيشاً يبتغي مرضاتك، لا يأكل الحرام ولا يغتصب الأموال".

ثم التفت إلى آغا الإنكشاريين وقال: "يا آغا! لو أنني وجدت جندياً واحداً قام بقطع ثمرة دون رضی صاحبها، لما ترددت في العدول عن سفري هذا، ولما تأخرت لحظة واحدة بالعودة إلى حيث أتيت".

ثم أردف قائلاً: "يا آغا! إنه من المستحيل أن تفتح البلاد بجيش يأكل الحرام ويغتصب أموال الناس". ■

قبل سفره إلى الشرق زار السلطان سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠) مسجد الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري في إسطنبول... صلى ركعتين ثم دعا ربه راجياً النصر وجمع شمل الأمة... وبعد ذلك ولّى وجهه نحو منطقة أسكدار لقيادة الجيش... تحرك الجيش العثماني في ٥ يونيو/حزيران ١٥١٦ من أسكدار... كان يمر من الأراضي الغنية بالحدائق والبساتين، والزخرفة بشتى أنواع الفواكه والثمار... ولما وصل الجيش إلى منطقة "كبزة" -التي تبعد عن إسطنبول بستين (٦٠) كيلومتر تقريباً- وحط رحاله واستقر، هجس في قلب السلطان سليم همٌّ ووقع في خلده أمرٌ... فدعا آغا الإنكشاريين على الفور وأمره بأن يفتش خروج وأكياس الجنود كافة ليتحقق من أمرٍ هو: هل جنى الجنود فاكهة من هذه البساتين دون إذن

ق

فنانة الألوان الهرباء

التخفي على أحسن وجه، كونها بطيئة الحركة ولا تستطيع التحرك بسرعة. وبالتمويه هذا، استطاعت الحرباء حماية نفسها من الأخطار، والتقاط فرائسها من الحشرات والهامام بلسانها اللزج الذي يبلغ طول جسمها. أمر آخر يثير العجب في هذا المخلوق، وهو استقلالية عيونها عن بعضها البعض، حيث تمتعت الحرباء بمدى رؤية ١٨٠ درجة أفقية، و ٩٠ درجة عمودية، الأمر الذي وفر لها رؤية أمامها وخلفها وفوقها وتحتها في آن واحد! إنه عالم الحيوان، العالم المعجز الذي يستحق التأمل والتدبر في كل حين، أليس كذلك؟^١

^(١) كاتب وباحث تركي.

كائن يملك موهبة يحاكي بها جميع ألوان الطبيعة. إنها الحرباء التي تُغير لونها وفقاً للون الذي تطأه ببضع دقائق! تكتسي اللون الأخضر إذا كانت بين الأوراق الخضراء، وتكتسي اللون الرمادي إذا كانت بين الأحجار الرمادية... ولكن من أين لهذه الحرباء بهذه الألوان؟ وأين تختزن الأصباغ يا ترى؟ تتمتع الحرباء بجلد شفاف ذات طبقات من الخلايا التي تحتوي على مادة للتلوين، وإذا تقلصت هذه الخلايا أو تمددت تُغير لون جلدها... وكذلك يتغير لون الحرباء عند انفعالها؛ حيث يؤدي خوفها أو غضبها إلى تخفيف الخلايا من الأصباغ الكائنة في جلدها الذي يحتوي على الألوان الكاشفة بالقرب من سطحه، وعلى الألوان الداكنة في طبقاته السفلى، وهذا الترتيب في الخلايا هو الذي يسبب تعدد الألوان عند الحرباء.

وعن طريق هذه الألوان تمكّنت الحرباء من التمويه أو

ك



حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

www.hiramagazine.com

مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل

شهرين عن:

Işık Yayıncılık Ticaret A.Ş.

İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز

مصطفى طلعت قاطرجي أوغلو

المشرف العام

نوزاد صواش

nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير

هانئ رسلان

hraslan@hiramagazine.com

مدير التحرير

أجير إشيوك

eisiyok@hiramagazine.com

المخرج الفني

أنكين جفتحي

المركز الرئيسي

HIRA MAGAZINE

Kısıklı Mah. Meltem Sok.

No:5 34676 Üsküdar

İstanbul / Turkey

Phone: +902163186011

Fax: +902164224140

hira@hiramagazine.com

مركز التوزيع

٧ ش البرامكة - الحي السابع - م. نصر/القاهرة

تليفون وفاكس: +20222631551

الهاتف الجوال: +20100780831

جمهورية مصر العربية

نوع النشر

مجلة دورية دولية

Yayın Türü

Yaygın Süreli

الطباعة

رقم الإيداع

١٨٧٩-١٣٠٦

لاشتراك من كل أنحاء العالم

pr@hiramagazine.com



التصور العام

- حراء مجلة علمية فكرية ثقافية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وأفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تألف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والمبادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد مهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، وهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسباً.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعتبر عن آراء كتّابها، ولا تعتبر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجماً إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمنع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.
- يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

USA

Tughra Books

345 Clifton Ave., Clifton,

NJ, 07011, USA

Phone: +1 732 868 0210

Fax: +1 732 868 0211

SAUDI ARABIA

الوطنية للتوزيع

Phone: +966 1 4871414

المكتب الرئيسي: شارع التخصصي مع تقاطع شارع

الأمير سلطان بن عبد العزيز عمارة فيصل للسيار

ص.ب: 68761 الرياض: 11537

الجوال: 00966504358213

saudia@hiramagazine.com

abdallahi7@hotmail.com

Phone-Fax: +966 1 2815226

MOROCCO

الدار البيضاء ٧٠ زنقة سحلماسة

Société Arabo-Africaine de Distribution,

d'Edition et de Presse (Sapress)

70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca /

Morocco

Phone: +212 22 24 92 00

SYRIA

GSM: +963 955 411 990

YEMEN

دار النشر للحامعات

الجمهورية اليمنية، صنعاء، الخط الدائري الغربي،

أمام الجامعة القديمة

Phone: +967 1 440144

GSM: +967 711518611

ALGERIA

Bois des Cars 1 Villa N°68 Dely Brahim

GSM: +213 770 26 00 27

SUDAN

مركز دار النيل، مكتب الخرطوم

أركوبت مربع 48 منزل رقم 31 - الخرطوم - السودان

Phone: 0024 999 559 92 26 - 0024 915 522 24 69

hirasudan@hotmail.com

JORDAN

GSM: +962 776 113862

UNITED ARAB EMIRATES

دار الفقيه للنشر والتوزيع

ص.ب. 6677 أبو ظبي

Phone: +971 266 789920

MAURITANIA

Phone: +2223014264



مجلة حراء على الآي فون مجاناً

- حراء الآن في هاتفك الجوال أينما يمت.
- بلمسة واحدة تابع كل نشاطات حراء.
- بلمسة واحدة شكّل أرشيفك الخاص بـ"حراء".
- بلمسة واحدة اكتشف المزيد عن عالم حراء.
- حراء دائماً إلى الأفضل.. ابقوا معنا...

www.hiramagazine.com - facebook.com/hiramagazine
twitter.com/hiramagazine - youtube.com/hiramagazine



مركز التوزيع فرع القاهرة : ٧ ش البرامكة، الحي السابع، مدينة نصر - القاهرة / مصر
تليفون وفاكس : +20222631551 الهاتف الجوال : +20165523088

www.daralnile.com





تركيا: ٦ ليرات • أوروبا: ٣,٥ يورو • أمريكا: ٥ دولار

الألوان ووجه الطفل

هكذا كانت أحلام طفولتي،
بالألوان زاهية..
المستحيلاتُ فيها ممكنة..
ورياض الورد في نسيج خيالي،
تحاكي عهد الورد يا سالي (*)
ويهبّ نسيمي بريئاً مثل براءتي..

* * *

(*) عهد الورد هو عصر النبي ﷺ



ISSN 1691-9081



31 1691-9081

www.hiramagazine.com